

علوم القرآن

دروس منهجية

تأليف

السيد رياض الحكيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

وبعد..

فقد شغل القرآن الكريم مساحة واسعة من اهتمامات وجهود الباحثين المسلمين وغيرهم، ولم يقتصر هذا الاهتمام على البحوث التفسيرية والتمعن في مداليل آياته، بل شمل البحث في شؤونه المختلفة وخصوصياته مثل إعجازه وتنزيله وجمعه وترتيبه وقراءاته وغيرها.. وقد كوَّنت مجموع هذه البحوث - فيما بعد - العلم المعروف بـ "علوم القرآن" والذي أصبح ضمن مواد المنهج الدراسي للحواضر العلمية التي يقصدها ويتخرج منها طلبة العلوم الاسلامية.

وعندما دعيت لتدريس مادة "علوم القرآن" للطلبة الأجانب في المركز العالمي للدراسات الاسلامية في الحوزة العلمية بمدينة قم المشرفة، لاحظت افتقاد المنهج الدراسي لهذه المادة المنسجم مع مستوى الطالب وطبيعة الدراسة في الحوزة العلمية - رغم وجود بعض الكتب القيّمة - فجاءت فكرة ترتيب هذا الكتاب على شكل دروس منهجية. مع اضافة الاسئلة الخاصة بكل فصل ليسهل على الطالب تحديد أهم النقاط والمواضيع المبحوثة فيه.

وقد حرصت على أن يكون اسلوب الكتاب منسجماً مع طبيعة المناهج الدراسية التي يفترض ابتعادها عن الاطالة والاسهاب مع المحافظة على الايضاح المطلوب وخلو التعبير من التعقيد والغموض، آملاً أن أكون قد وقّقت فيما قصدت، ورعاية لحجم الحصة الدراسية كان لا بدّ من توزيع بعض المواضيع على عدة دروس.

وسوف يلاحظ القارئ حضوراً واضحاً للنصوص الواردة عن أئمة آل البيت (عليهم السلام) وعرض مواقفهم وآراء شيعتهم من البحوث والمواضيع التي تبحث في هذا العلم، والتي هي مغيّبة في كثير من المصادر.

ختاماً أدعو الله تعالى أن ينفع به طلبة العلوم الاسلامية وكل المهتمين بالشؤون القرآنية، وأن يجعله ذخراً لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، انه سميع مجيب.

رياض الحكيم

"الدرس الأول"

تمهيد

يتضمن الإشارة الى تعريف العلم، وتاريخ وعوامل نشوء هذا العلم وتطوره.

١ - تعريف: "علوم القرآن"

منذ أن بزغ فجر الإسلام مقترناً بنزول الوحي الإلهي، وتوالت آيات الله لتشكّل فيما بعد كتاب الله الذي يحمل في طياته معالم الدين الجديد بمختلف أبعاده العقائدية والتربوية والعبادية وغيرها، أدرك المسلمون أهمية الكتاب العزيز - القرآن الكريم - وعظمته، ولم يقتصر اهتمامهم على استيعاب معانيه والتمعن في آياته وتفسيرها، بل اهتموا بجوانب أخرى ترتبط به مثل تاريخ نزوله، وترتيبه، واختلاف القراءات، والإعجاز، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك...

وقد عُرفت هذه البحوث - فيما بعد - باستثناء تفسير معانيه الذي صار علماً بنفسه، بـ "علوم القرآن".

فـ "علوم القرآن" العلم الذي يحتوي على ما يرتبط بالقرآن الكريم من بحوث - سوى التفسير - مثل تأريخ نزوله، وترتيبه، واختلاف القراءات، والناسخ والمنسوخ، ووجه الإعجاز فيه، وغير ذلك.

وقد اتضح أن العلوم التي تعرّض لها القرآن الكريم مثل الفقه والتربية والعقائد وغيرها لا ترتبط بهذا العلم.

٢ - تاريخ "علوم القرآن"

لاشك أن بدايات العديد من بحوث هذا العلم تمتد إلى عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل الناسخ والمنسوخ، واختلاف القراءات والوحي وغير ذلك، وقد تزايد اهتمام المسلمين بهذه البحوث بعد انقطاع الوحي عقب وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث أصبح القرآن الكريم أحد الثقلين اللذين خلفهما (صلى الله عليه وآله وسلم) للأمة. ولكن المؤسف أن لا نملك أثراً عن طبيعة تلك الدراسات في ذلك العصر؛ لأنها كانت عبارة عن نقل الحديث عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن الطبيعي أن تتأثر بقرار المنع الصادر من الشيخين على رواية حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وكتابته، بل وإحراق الموجود منه (١)، وقد تأخر السماح بتدوين السنة إلى نهاية القرن الأول الهجري، قيل: في زمن عمر بن عبدالعزيز (ت ٩٩ - ١٠١) فقد كتب إلى عامله في المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم "انظر ما كان من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاكتبه، فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء" (٢).

وعلى كل حال، فيبدو أن أول من دون في علوم القرآن الإمام علي (عليه السلام) فقد أثبت له الشريف المرتضى كتاب "المحكم والمتشابه في القرآن" (٣)، كما نسب له سعد بن عبدالله الأشعري كتاب "ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه" (٤)، وذكر الحافظ ابن عقدة الكوفي أن للإمام ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن (٥).

ومن بعده ألف يحيى بن يعمر (ت ٨٩ هـ) أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي كتابه "القراءة" في قرية واسط، وضم الاختلاف الذي لوحظ في نسخ القرآن المشهورة (٦).

وفي القرن الثاني صنّف الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (ت ١١٥ هـ) كتابه في "عدد آي القرآن".

وعبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ) كتابه في اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق و"المقطوع والموصول". وشيبة بن نصاح المدني (ت ١٣٥ هـ) كتاب "الوقوف"، وأبان بن تغلب (ت ١٤١ هـ) - تلميذ الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) - صنّف كتاباً في القراءات، وله كتاب "معاني القرآن".

ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) أول من صنّف في "أحكام القرآن" ومقاتل بن سليمان المفسّر (ت ١٥٠ هـ) له كتاب "الآيات المتشابهات". وأبو عمرو بن العلاء زبان بن عمّار التميمي (ت ١٥٤ هـ) ألف كتاب "الوقف والابتداء"، وله كتاب "القراءات". وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٦ هـ) - صاحب الإمام الصادق (عليه السلام) - له كتاب في القراءة، وتوالى تأليف كتب اخرى في فترات لاحقة.

وفي عصور متأخرة ألفت كتب جامعة لعلوم القرآن، منها كتاب "البرهان في علوم القرآن" لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤ هـ)، ومنها كتاب "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ).

وأما اصطلاح "علوم القرآن" فربما يرجع الى القرن السادس حيث ألف ابن الجوزي (ت ٥٩٧) كتابين أحدهما بعنوان: "فنون الأفتان في علوم القرآن" والثاني بعنوان: "المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن".

لكن حكى محمد بن عبد العظيم الزرقاني أنه ظفر في دار الكتاب المصرية بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي (ت ٣٣٠ هـ) اسمه "البرهان في علوم القرآن" يقع في ثلاثين مجلداً الموجود منه خمسة عشر مجلداً، إلا أن الزرقاني تحدث عن هذا الكتاب بقوله: (... كأنّ هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات...).

٣ - عوامل نشوء هذا العلم

نستطيع أن نلخص العوامل التي أوجبت نشوء هذا العلم وتطور البحث في ذلك بما يلي: -

١ - فضل القرآن وقدسيتها في نفوس المسلمين، فهو الثقل الأكبر والكتاب الذي أوصى به النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) أمته، فضلاً عن النصوص الكثيرة الواردة في ضرورة تقديسه وتنزيهه عن كل ما لا يليق بشأنه، وكذلك الحث الأكيد على قراءته وفهمه والتدبر فيه وحفظه.

٢ - عمق القرآن الكريم وتنوع أبحاثه، مما أوجب اهتمام العلماء بدراسته دراسة معمقة ومفصلة سواء ما يرتبط بألفاظه وأسلوبه أم ما يرتبط بمدلولاته ومضمونه (ظاهره أنيق وباطنه عميق) - كما جاء في الحديث -.

٣ - كونه معجزة الإسلام الخالدة مما أوجب اعتزاز المسلمين به وانشدادهم نحوه، وبالمقابل صار هدفاً لشبهات أعداء الإسلام الذين يرومون الطعن بالإسلام، هذا الصراع حوله أوجب أن يكون محط أنظار العلماء والباحثين وتوجههم إليه مما ساهم في توسع الأبحاث المرتبطة به كالتفسير وعلوم القرآن.

٤ - تضمّنه لأهم معالم الدين الإسلامي وأسس وتشريعاته، فهو يتحدث عن اصول العقيدة التي نادى بها الإسلام، كما يتضمّن معالم الأطروحة الإسلامية لرقى الإنسان وتهذيب نفسه وإصلاح مجتمعه، بالإضافة الى جملة وافية من التشريعات الإسلامية المتنوعة.. الى غير ذلك من المواضيع الهامة التي تهتم المسلم.

فهو كتاب حيوي مقدس لدى المسلمين، ولذلك ورد الحث على قراءته والتدبر فيه، بل اعتبره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الثقل الأكبر الذي خلفه ويطلب به أمته، كما جاء في حديث الثقلين.

٥ - عدم اشتماله على أسماء أو مواقف محدّدة صريحة، ولذلك ورد عن الإمام علي (عليه السلام): "هذا القرآن إنّما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بدّ له من ترجمان، وإنّما ينطق عنه الرجال" (٨). وفي وصيته لابن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: "لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون" (٩).

هذه الميزة في القرآن جعلته في مأمن من كيد السلطات الجائرة المتعاقبة، فلم يقفوا أمام اندفاع المسلمين نحوه والباحثين به، ولم يواجهوه بما واجهوا به أهل البيت (عليهم السلام) - الثقل الآخر - وشيعتهم من العنف والقسوة.

خصائص القرآن

الخاصة الأولى: الشمولية

عندما نتحدث عن شمولية القرآن لا نعني أنه فهرسة للعلوم المختلفة، وإلا لأوجب ذلك إماتة روح الإبداع في الإنسان في هذه الحياة الدنيا التي ابتنت على الكدح وبذل الجهد والإبداع.

بل نقصد أنه يتناول كل جوانب الحياة التي تحيط بالفرد والمجتمع، ولا يقتصر دوره على جانب معيّن منها فهو كتاب شامل في تعاليمه ومحتواه أو فلنقل ليعزز جهود الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في أدائه لهذا الدور، بتوجيه الأمة وارشادهم الى ما يضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ولذلك فمن الطبيعي أن يشتمل على مختلف الأمور التي تكون فاعلة في إصلاح الأفراد والمجتمع، ولم يقتصر على جانب واحد منها. (إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (١٠) فالقرآن قد احتوى على كل ما يهم المسلم بإطاره العام وهو:

١ - أصول العقيدة الإسلامية من التوحيد والنبوة والمعاد والإمامة والولاية، وغيرها من المسائل الاعتقادية الأخرى، كالقضاء والقدر والعرش وغير ذلك...

٢ - الجانب التربوي وما يرتبط به من سمو الاخلاق وتهذيب النفوس.

٣ - مجموعة من الأحكام الشرعية والقوانين التي تنظم سلوك المسلم وعلاقاته كفرد، والمسلمين كمجتمع، كما أشار الى اتباع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وولاية الأمر الذين يحدّدون باقي التفاصيل.

وهذا هو مانعنيه من شمولية القرآن.

إضافة لذلك نرى أنّ القرآن قد تصدّى لمهمة أخرى وهي جذب الناس وترغيبهم فيما يصلحهم، ولم يقتصر دوره على سرد مقومات الإصلاح ضمن مواد قانونية جافة ومحدودة التأثير بل تضمن أرقى الأساليب البلاغية وأكثرها تأثيراً في النفس، (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله) (١١).

"الدرس الثالث"

عندما نتحدث عن انتساب أثر أو كتاب لشخص نعتمد على الدلائل التي تشهد لهذا الانتساب، وكذلك القرآن الكريم نعتمد في نسبته لله تعالى على مجموعة من الأدلة والقرائن، وتعتبر أكثرها شواهد على إعجازه، نذكر منها:

١ - انسجام مضمونه ورسالته مع صراط الله القويم المنسجم مع كماله المطلق، فعندما نراجع القرآن الكريم نجده يصب في هذا الاتجاه، فهو بين تمجيد وتوحيد لله تعالى واستعراض صفات كماله، ومثله، ولطفه بعباده، وبين دعوة الناس بمختلف أساليب الترغيب والترهيب إلى صلاح أنفسهم ومجتمعاتهم، وبين رسم الخطوط التشريعية العريضة وأحياناً التفصيلية - لحكمة أو ظرف خاص - المنسجمة مع الفطرة والطبيعة البشرية لتعين الإنسان في مواجهة الظروف التي يواجهها خلال مسيرة حياته.

فكل إنسان لو تأمل وسرحت مخيلته فتصور أن الله تعالى بعث رسولاً للبشر فماذا ينتظر من هذا الرسول؟ هل يتوقع من هذا المبعوث الإلهي مفهوماً أو ارشاداً أو مشروعاً يصطدم بتعاليم القرآن؟

حبذا لو تفرغ أحدنا - في سبيل عقيدته - وتأمل مع نفسه قليلاً حول النهج القرآني، ألا يجده دليلاً كافياً على انتساب هذا الكتاب الكريم لله الحكيم العليم الرؤوف الرحيم؟ (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) (١٢)، هب أن صياغة هذا الدليل قد لا تكون صياغة جدلية تسكت الخصم المجادل لكنا في عقيدتنا لا نتقيد بأدلة مجالس الجدل والمخاصمة - رغم أهميتها - فما أكثر الخيارات المصيرية التي نختارها اعتماداً على قناعاتنا الخاصة المدعومة بالوجدان أو الفطرة أو الحدس الدقيق أو ما شئت فقل.

٢ - قمة البلاغة باعتراف العرب المعاندين له رغم إبداعهم في هذا الجانب، وتأكيده لصحة هذه الدلالة نلاحظ أن التحدي القرآني كان في مكة حيث كان المسلمون أقلية مضطهدة وكان هناك قلق كبير ينتاب كبار قريش من دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلو كان بإمكانهم التحدي لواجهوا نداء القرآن (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) (١٣). (فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله) (١٤).

وروى المؤرخون أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أنزل عليه (حم) * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) (١٥) قام إلى المسجد يقرأها والوليد بن المغيرة قريب منه فلما فطن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله، لقد سمعتُ من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثر [لمثمر] وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو وما يعلى [عليه] (١٦).

وقد أشار الكتاب والباحثون الى جوانب متعددة في الفصاحة والبلاغة تميّز بها القرآن نشير الى بعضها:

أ: الإيقاع الموسيقي المتميز المتعدد الأنواع والمتناسق مع الجو -كما عن الموسيقار المعروف محمد حسن الشجاعي- أو الموسيقى الباطنية كما يقول الأستاذ مصطفى محمود.

ب: انه بيان على قدر الحاجة، يقول ابن عطية: (لو نزلت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد).

ج: انه لا يخلق عن كثرة الرد وطول التكرار...، كما أشار إليه كلام الإمام علي(عليه السلام).

د: الروحانية العالية فيه، هذه الروحانية التي تنفذ الى عمق سريرة الإنسان وتهزّ وجدانه(١٧)، حتى ان كثيراً من اسرى الحضارة المادية المعاصرة آمنوا بالاسلام متأثراً بهذه الروحانية.

٣ - عدم تطور أسلوبه خلال (٢٣) عاماً، هي فترة نزوله، وهو أمر لا ينسجم مع طبيعة الإنسان التكاملية، ولذا نلاحظ الفارق الشاسع في المستوى الفني للشعراء والأدباء عندما نقارن بين بداية نتاجهم الأدبي ومرحلة تكاملهم، بينما لا نجد هذا التكامل في القرآن فلا نجد تطوراً في السور المدنية عن المكية من ناحية الأسلوب والفصاحة والبلاغة.

ويمكن أن نضيف الى هذه النقطة أننا لا نجد في القرآن تذبذباً في الأسلوب ولا ضعفاً في بعض سورته وآياته، مكيّة كانت أم مدنية، وهذا أيضاً مخالف للطبيعة البشرية المتأثرة بعوامل عديدة تنعكس على نتاجها، خاصة الحس الأدبي والبلاغي المرهف الذي يتأثر بأدنى سبب.

٤ - من المعروف أنّ سمات ودلائل النبوغ تظهر لدى الشخص في سني حياته الأولى وبدايات الشباب، فلو كان القرآن من إنشاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لظهرت عليه دلائل هذا النبوغ في بدايات حياته واهتم به قومه وتحدّث به العرب لاهتمامهم بهذه الظاهرة، خاصة ان سوق عكاظ كان في مكة مأوى الحجاج، ولاكتسب(صلى الله عليه وآله وسلم) مكانة مرموقة بين قومه وافتخر به أهله وعشيرته، وانهاالت عليه الهدايا والعطاءات، خصوصاً مع ما عرف عن كفيله أبي طالب من الفقر والضيق المادي.

ولعل الآية الكريمة تشير الى ذلك بقولها: (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) (١٨).

٥ - تنوع أساليب القرآن الكريم وبلوغه القمة في كل منها حيث نجد قمة البلاغة في السور ذوات الآيات القصار كما نجدها في ذوات الآيات الطوال، كذلك تشترك كل الآيات - بمضامينها المتنوعة - في الإبداع، سواء منها آيات الوعد والوعيد أم القصص أم التشريع أم مكارم الأخلاق أم العقائد وغيرها، بينما المعهود في الأدباء والبلغاء..

أولاً: أن يكون لإبداعهم مذاق واحد. فلكل شخص أسلوبه المتميز به، حتى ان النقاد والباحثين يعتمدون على هذه النقطة في نسبة القصائد والنتاجات الأدبية لأصحابها الحقيقيين.

وثانياً: ان كلا منهم يحلّق في مساحة خاصّة، فقد قالوا في شعر امرئ القيس: "يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل"، وشعر النابغة "عند الخوف" وشعر الأعشى "عند الطلب ووصف الخمر"، وشعر زهير "عند الرغبة والرجاء" (١٩)، فكل شاعر يحسن كلامه في مجال فإنّه يضعف في غير ذلك، أمّا القرآن فإنّه بلغ الذروة بأساليبه المختلفة وفي مساحات شتى. وهذا مما ينفي كونه إبداعاً بشرياً.

٦ - عدم الاضطراب في المحتوى، وتظهر أهمية هذه النقطة مع ملاحظة ما يلي..

أ: تشعب المواضيع والعلوم التي يتعرّض لها، حيث يشتمل على منظومة من العقائد والحكم ومكارم الأخلاق والقوانين، ويتضمّن القصص التاريخية وبعض الظواهر الكونية.. وغير ذلك.

ب: نزول كثير من الآيات أو أكثرها من دون تهيئة مسبقة، أو تبعاً لحدث طارئ أو سفر أو حرب أو نحو ذلك مما لا يسمح بالتمعّن ومراجعة النص السابق تجنباً للوقوع في التناقض.

ج: تكرر الحديث عن نفس المواضيع التي سبق التعرض لها في فترات زمنية متباعدة مما يجعله معرضاً للاضطراب والتناقض - لو كان نتاجاً بشرياً - وعدم الاقتصار في الحديث عن الموضوع مرة واحدة.

د: صدوره من غير متعلم، إذ لم يعرف عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) اهتمامه بالدراسة والتعلم، فكيف يمكنه إبداع القرآن وما تضمنته من علوم وتعاليم وغيرها، فهو يتحدث عن السماء والأرض والتوحيد والأخلاق والتشريع والتاريخ وغير ذلك، والى هذا تشير الآية الكريمة: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذ لا تراتب المبطلون) (٢٠).

بعد ملاحظة هذه النقاط الأربع يتضح الوجه في كون عدم الاختلاف والاضطراب في القرآن دليلاً على ارتباطه بالله تعالى ومن أدلة إعجازه، كما أشارت إليه الآية الكريمة: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٢١).

والبعض ممن لم ينتبه لهذه الخصوصيات الأربع لم يتفهم وجه كونه دليلاً على الإعجاز، قال محمد عبدالعظيم الزرقاني: "ويلاحظ كذلك ان الاشتمال على الحكم البالغة، وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه لا يصلح واحد منها أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة بل كثيراً ما نجد كلام الناس مشتملاً على حكم وسليماً من التناقض والاختلاف" (٢٢).

وما أدري كيف يفهم الزرقاني معنى هذه الآية الصريحة في جعل عدم الاختلاف في القرآن دليلاً على أنه من الله تعالى لا من البشر، ويبدو أنه أخذ عدم الاختلاف مجرداً عن الخصوصيات التي ذكرناها فلذلك لم يستوضح دلالاته على الإعجاز.

ومن كلام للإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة: "وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)" (٢٣).

٧ - إخباره بالمغيبات، ويتضح وجه دلالة هذا الشاهد على الإعجاز من خلال ملاحظة ما يلي:

أ: إن المتميزين بالإخبار عن بعض الأمور الغيبية والعلوم الغريبة من الكهان ونحوهم كانوا بعدد الأصابع ومعروفين على مستوى الجزيرة العربية يراجعهم العرب ويحكمونهم أحياناً في أمورهم، ولم يعرف عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يرتاد أماكنهم ويختلط بهم، ولو كان قد استقى علومه الغيبية من أحد هؤلاء لفضحه هو ومن يختص بذلك الشخص.

خصوصاً أنهم كانوا بعيدين عن مكة بحيث يُفصدون بعناء، فليس من المعقول أن يرتاد على أحدهم شخص من أسرة معروفة متميزة في مكة ويلزمه فترة طويلة من دون أن يعرف بذلك أحد حتى أقاربه وأهله، خاصة أن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) كان في كفالة عمه شيخ الأباطح أبي طالب الذي سببت دعوته له ولبنني هاشم إخراجاً عظيماً، خسروا بسببها زعامتهم في قريش وعُزلوا عن المجتمع المكي وحوربوا على جميع الأصعدة، فلو كانوا قد اكتشفوا دجلاً منه من خلال ارتباطه بالكهان ونحوهم لنبنوه ولم يتحملوا المحنة العصبية بسببه.

وقد تنبّه الكاتب الإنجليزي (هـ. ج. ويلز) لذلك حيث قال: "إنّ من أرفع الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا به".

ب: إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يحتجّ بتحقيق إخباراته الغيبية لاثبات صدق دعواه الرسالة الالهية، فلم تجرّ إليه نفعاً ولم تدعم سلطانه حين تحققها، بل ان بعضها تحقق بعد وفاته(صلى الله عليه وآله وسلم)، مما يكشف يقيناً ان الإخبار بها لم يكن لمطامع دنيوية - كما يفعل الكهنة والمرتبطن بعالم الجن ونحوهم - مثل إخباره بغلبة الروم في المستقبل - في بضع سنين - واقتران ذلك بغلبة المسلمين ونصرهم، الأمر الذي لم يكن يخطر في بال أحد آنذاك، قال سبحانه وتعالى: (ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم * وعدّ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (٢٤)، فترى لسان الآية لسان الواثق المتيقن الذي لا يقبل أي شك أو ترديد.

وبالفعل تحققت كل هذه النبوءات - غلبت الروم، في أقل من عشر سنوات، مقرونة بفرح المؤمنين بنصر الله في بدر الكبرى - ولم يُعرف ان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) استثمر ذلك في مخاصمة المشركين وتقوية حجّته.

ومن آيات الغيب هذه قوله تعالى: (وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) (٢٥)، حيث روى جمع من المؤرخين والمفسرين - من الفريقين - نزول هذه الآية المكية في بني أمية(٢٦)، حيث رآهم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ينزون على منبره فاغتمّ لذلك فنزلت الآية الكريمة في مكة، فصدّقها الزمن بعد حين.

أترى مثل هذه الإخبارات الغيبية تتناسب مع إخبارات الكهنة ومن شابههم؟!

وهناك العديد من إخبارات الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) - غير القرآنية - كانت من هذا القبيل حيث لم يستثمرها وإنما شهد الزمن بصدقها فيما بعد، كإخباره بأنّ عماراً تقتله الفئة الباغية وأنّ آخر شرايه ضياح من لبن، وكان هذا الحديث من الحقائق الثابتة تاريخياً حيث بلغ حداً من الانتشار بين المسلمين بحيث أخرج معاوية عند مقتل عمّار واضطرب جيش أهل الشام وكاد الأمر ينقلب عليه لولا حيلة صاحبه عمرو بن العاص حينما خدع رعاة أهل الشام بقوله: "إنما قتل عمّاراً من جاء به" محملاً الإمام علياً(عليه السلام) مسؤولية مقتله(٢٧).

عوداً على الموضوع نقول: بملاحظة هاتين النقطتين يتضح كيف تكون تلك الإخبارات الغيبية شاهدة على إعجاز القرآن وارتباطه بالله تعالى.

٨ - اشتمال القرآن الكريم على أسماء وحوادث قديمة لم يعرفها المجتمع آنذاك، وبعضها لم تتعرض له الكتب القديمة مثل قضية صالح وبلقيس وسد مأرب ونحو ذلك، بل حتى بعض ما تحدثت عنه المصادر الأخرى تناولها القرآن بدقة ومعقولية، وبعضها أكدتها البحوث والتحريات الحديثة.

وقد ذكر المؤرخون ميل النصراني (عداس) غلام صفوان بن أمية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما أخبره (صلى الله عليه وآله وسلم) عن النبي يونس بن متى ومسقط رأسه نينوى، حيث فوجيء عداس بهذه المعلومات اليسيرة من عربي يعيش في مكة (٢٨)، فكيف بالعدد الهائل من المعلومات التي تضمنها القرآن الكريم بمجموع آياته؟!

٩ - اشتماله على منظومة عقائدية دقيقة ومنسجمة مع العقل والبرهان، خاصة مسألة التوحيد وبحثها التي هي أهم قضية عقائدية شغلت فكر الانسان واهتمامه، فقد طرحها الإسلام من خلال القرآن والسنة بشكل دقيق سليم من كل إشكال وتهافت حتى انبهر بها العلماء في العصور المختلفة بهذا الطرح القرآني الدقيق، مع ان ذلك مما لا تستوعبه العقول والأذهان العادية للبشر، ولذلك نجد أن عدم استيعاب هذه الفكرة كانت مشكلة البشرية وما زالت، بمن فيهم اتباع الأديان السماوية التي حملت نفس الفكرة حيث ضلوا عنها بعد رحيل أنبيائهم، وسيطرت عليهم أفكار منحرفة، مثل فكرة الشريك وفكرة التجسيم وغير ذلك.

فكيف يتصور أن انساناً يعيش في تلك العصور المظلمة وفي ذلك المجتمع الجاهلي المتوحش يتعامل بهذه الدقة مع هذه القضية الحساسة التي شغلت الفلاسفة والعلماء في كل عصر، فترى القرآن الكريم تحدث كثيراً عن موضوع التوحيد وصفات الباري سبحانه بدقة متناهية من دون أن يحيد عن الصراط المستقيم.

١٠ - التشريع الشامل لمختلف جوانب الحياة، وشؤون الأفراد والمجتمع من الطقوس العبادية، والتشريعات في مجال العلاقات العامة والخاصة، وتهذيب النفس، وغير ذلك، حيث لا يعقل أن يبتكر كل ذلك شخص قبل أربعة عشر قرناً ينتمي الى مجتمع يتجذر التخلف في أعماقه.

وقد تنبّه الكثير من الباحثين الغربيين وغيرهم إلى هذه النقطة بالذات فصارت من أهم ما يجذب المثقفين للإسلام في هذا العصر.

وتبقى على العلماء مسؤولية التمعن في مصادر التشريع الإسلامي لإبراز هذا الجانب المشرق من الإسلام، وطرح الحلول السليمة الكفيلة بحلّ المشاكل المعقدة التي تواجهها المجتمعات، من خلال فهم دقيق وواع لمصادر التشريع وحدوده، وعرض ذلك في اطروحة وصياغة قانونية حديثة.

١١ - وهناك شواهد أخرى على ارتباط القرآن بالله تعالى نذكر منها..

أ: مجموعة آيات العتاب التي يلوح من بعضها الشدة التي كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في غنى عنها - لو كانت من إنشائه - علماً أنه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يستثمره لإثبات صحة دعواه حتى تفسر على أنها مقصودة له، نخص بالذكر الآيات المدنية المذكورة التي نزلت في أوج قوة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لم يكن في حاجة لمثل هذه الأساليب لتدعيم سلطته.

ب: اختلاف مضمون القرآن وطبيعة سلوك النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) المختلفين تماماً عن مضمون كلام أصحاب العلوم الغربية وسلوكهم.

ج: ما عُرف عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) من أنه الصادق الأمين قبل دعوته، ولذلك صدّقه أقرابه والمحيطون به وتحملوا الشدائد في سبيل ذلك.

د: بعض المواقف الحازمة التي تكشف عن الارتباط بالله تعالى مثل موضوع قبلة المسلمين وتبديلها من بيت المقدس الى الكعبة، ففي مكة وبداية الدعوة حيث كان يفترض - من منظور مصلي - جذب القرشيين الى الإسلام جعلت القبلة الى بيت المقدس مما أثار غيظ المكيين حيث طعنهم في أقدس رمز عندهم، والذي كان أهم مصدر لوضعهم المعنوي والمادي المتميز، بالإضافة الى أنه كان خلاف رغبته(صلى الله عليه وآله وسلم) - كما دلت عليه الآية الكريمة فيما بعد -.

وفي المدينة حيث كان يفترض - كذلك - جذب أهل الكتاب وضرب مصالح أهل مكة أرجعت القبلة الى الكعبة مما يكشف عن أن أمر التشريع المذكور لا يخضع للرغبة البشرية، وإنما هو تابع للإرادة الإلهية رعاية لمصالح لا يعرفها غيره تعالى.

هـ: كشف العديد من الآيات القرآنية عن حقائق علمية أثبتتها العلم الحديث، وهو ما يعبر عنه بالاعجاز العلمي(٢٩). ونؤكد هنا على أهمية الاعتدال والموضوعية وعدم تحميل الآيات القرآنية خلاف ظاهرها لمجرد تطبيقها على مقولة أو نظرية علمية حديثة. لأن القرآن كتاب هداية وليس كتاباً جامعاً للنظريات العلمية التي هي شؤون بشرية.

١٢ - ونضيف الى الدلائل على صحة انتساب القرآن والرسالة الغراء لله سبحانه موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) الصلب وتفانيهم في سبيل هذا الدين العظيم مع علمه (صلى الله عليه وآله وسلم) بمصير أهل بيته المفجع - كما دلت عليه نصوص كثيرة ذكرها أيضاً من لم يكن من اتباع أهل البيت (عليهم السلام) (٣٠) - فلو لم يكن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مرسلاً ومرتبباً بالله لم يكن إقدامه على ما سيؤول إلى مقتل أسرته وذريته معقولاً.

ولا يحتمل في حقّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يكون على وهم وقناعة خاطئة، لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يعتمد على النظريات المجرّدة القابلة للخطأ، بل يعتمد على مشاهدة الواقع العيني. ونظير موقفه (صلى الله عليه وآله وسلم) موقف أهل بيته (عليهم السلام) - خاصة الإمام علي (عليه السلام) - في استقامتهم ومعاناتهم في سبيل الرسالة الإسلامية حيث بذلوا كل غال ونفيس.

"الدرس السادس"

الخاصة الثالثة: خلود القرآن

ان خلود القرآن بمعنى أنه نزل ليبقى أي ليكون مناراً ومرجعاً للأجيال المتعاقبة، ولا يختص بجيل نزوله أو بفترة معينة. وهناك عدة أمور تشهد بذلك..

١ - طبيعة آياته ومحتوياته، فهو بين آيات مرتبطة بالعقائد الصحيحة وبين دعوة الى مكارم الأخلاق وبين تشريعات في مختلف المجالات منسجمة مع الفطرة الإنسانية وصالحة لترتيب شؤون الإنسان وتنظيم علاقاته مع الآخرين.

نعم هناك مجموعة من الاعتراضات والتساؤلات حول بعض التشريعات القرآنية والإسلامية بشكل عام ومدى انسجامها مع تطور المجتمعات، وقد تصدى العلماء للإجابة عليها وتوضيح انسجام تلك التشريعات مع تطور الإنسان، ولسنا بصدد استيعابها هنا، لأنّ مجالها كتب العقائد وفلسفة التشريع، لكن يكفي هنا أن نشير الى الإعجاب المتزايد بالقرآن الكريم والتشريع الإسلامي من قبل مجموعة كبيرة من المثقفين الغربيين، فهذا الألماني المعروف (غوته) يشيد بالقرآن ويضيف: انّي اعتقد ان هذا الكتاب سيتربك في القريب العاجل أثره المنجي والعميق في كل جوانب الحياة ويكون بالنتيجة محط أنظار العالم.

ويقول (جول لابوم) - في مقدمة فهرسة القرآن -: القرآن حي الى الأبد، وكل واحد من الناس يستفيد منه بمقدار إدراكه واستيعابه.

ويقول (بايلر) المستشرق المعروف - بعد أن أشاد بالقرآن - في القرآن مواظظ ظاهرة وسيكون في القريب العاجل بلا معارض الى الأبد، وكل شخص يتبع القرآن جيداً ستكون حياته مطمئنة وممتازة ومثالية (٣١).

٢ - وما يشهد بخلود القرآن ما دل ان شريعة الإسلام آخر الشرائع وان حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة، ونحو ذلك، حيث من الواضح ان القرآن الكريم هو الثقل الأكبر الذي تضمن كثيراً من أصول الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، فمن دوام الإسلام وخلوده نعرف دوام القرآن وخلوده.

٣ - ومما يشهد - اسلامياً - بخلود القرآن النصوص الكثيرة في السنة التي تأمر المسلمين - بأجيالهم المتعاقبة - بالأخذ بالقرآن والتأمل فيه وعظمته ونحو ذلك، ويقف في مقدمتها حديث الثقلين المروي بطرق عديدة والمسلم عند جميع المسلمين، حيث تضمن وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين بأجيالهم المتعاقبة بالتمسك بالكتاب والعترة.

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إنها ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه خبر ما قبلكم وما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيع به الأهواء ولا تشيع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه.." (٣٢).

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): "إن رجلاً سأل أبا عبد الله (عليه السلام) ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراية إلا غضاضة؟ فقال (عليه السلام): لأن الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة" (٣٣).

وفي حديث للإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة في ذم بعض الأزمنة: "يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلا رسمه ومن الإسلام إلا اسمه" (٣٤). فإن ذم هذا الزمان يعني أن القرآن أنزل ليكون مصدر هداية لكل الأزمنة.

ومن الشواهد على خلود القرآن ومرجعيته الدائمة للمسلمين ما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) من ضرورة عرض الروايات على القرآن وان ما خالف كتاب الله فهو زخرف أو باطل، وفي بعضها الأمر بأخذ النص الموافق للكتاب العزيز (٣٥)، ما يؤكد دوام مرجعية القرآن وهدايته للأجيال المتعاقبة.

الأسئلة

١ - عرّف "علوم القرآن".

٢ - من هو أوّل من دوّن في علوم القرآن؟

٣ - اذكر العوامل الخمسة لنشوء وتطوّر هذا العلم.

٤ - اذكر ستة من شواهد إعجاز القرآن الكريم.

٥ - ما هي النقاط الأربعة التي توضّح كيف أنّ عدم الاضطراب في القرآن دليل إعجازه؟

٦ - اذكر نقطتين تؤكّدان ان إخبارات القرآن الغيبية تكشف عن أنّه كتاب إلهي.

"الدرس السابع"

الخاصة الرابعة: أممية القرآن لجميع الشعوب والأمم

وهذا البحث يرتبط الى حدّ كبير بأهمية الإسلام، فإذا تم إثبات ذلك فنعطف على ذلك دور القرآن وأهميته في الإسلام باعتباره الثقل الأكبر، ليتضح حينئذ ان القرآن كتاب لهداية البشر ولا يختص بقوم أو أمة معيّنة.

أممية الإسلام

لاشك في أممية الإسلام وتصدي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) من بعده لهداية جميع البشر من دون خصوصية لقوم دون غيرهم، ونحاول هنا بحث الموضوع وتسليط الضوء على نقطتين:

الأولى: في توجيه أممية الأديان.

ونشير هنا الى زاويتين..

أ - نظرياً: نقول، لا مانع من شمولية الدين، لأنّ الدين يفترض اعتماده على ركنين أساسيين هما اصول العقيدة والتشريع المرتبط بالممارسة أو السلوك.

أمّا اصول العقيدة فهي حقيقة ثابتة لا تختلف باختلاف الشعوب، وأمّا الجانب التشريعي فيفترض في الدين اشتماله على تعاليم ارشادات أخلاقية سامية وتشريعات عملية عامة تساهم في إصلاح الفرد والمجتمع وسعادته في الدنيا والآخرة، فلا تختص بشعب دون آخر.

ب - بحسب الواقع الموضوعي أيضاً لا موجب لاختصاص الدين بفئة أو شعب خاص، ويكفي شاهداً على إمكانية انتشار الدين الواحد بين الشعوب المختلفة هو انتشار الدين المسيحي والدين الإسلامي بين الأعداد الهائلة من الشعوب شرقاً وغرباً، رغم تباين الظروف وتنوع الثقافات.

الثانية: هل الإسلام دين أممي؟

ونتحدث حول هذه النقطة في أمرين..

(الأمر الأول): الشبهات والاعتراضات الموجهة على ذلك، وأهمّها ظواهر بعض الآيات، منها:

(١) قوله تعالى: (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربّه إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد) (٣٦).

وجه الشبهة ان الآية فرضت أن لكل قوم هادياً، فكيف نفرض الرسول هادياً لجميع البشر؟

والجواب عنها من وجوه..

أ - إنّ هذا التفسير للآية الكريمة تفسير ساذج لا يلتزم مع افتراض انسجام الرد مع قولهم المرود، فإنّ هذا الرد - على هذا التفسير - لا ينسجم مع طبيعة طلبهم وموقفهم، فأيّ ارتباط بين طلبهم نزول الآية وبين هذا الرد؟!!

ويمكن أن تستظهر من الآية وجوه أخرى للتفسير.

منها: ان المقصود بالهادي ليس هو شخص الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما القرآن الكريم أو نحوه من شواهد الرسالة، ويكون المعنى ان الله تعالى جعل لكل أمة ما يناسبها من الآيات الهادية لهم، ويشهد لهذا المعنى تعدد نسبة الهداية للقرآن الكريم ونحوه مثل (إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (٣٧)، (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد) (٣٨)، (إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق) (٣٩)، (إنّا سمعنا قرآناً عجباً* يهدي الى الرشاد فأمّا به) (٤٠) وغيرها...

وهذا التفسير يوقر الانسجام بين مقدّمة الآية وتكتملتها، فإنّهم لما طلبوا الآية المعينة من الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، توجّه الرد عليهم بأن الله ينزل مع كل رسول الآية التي تنسجم مع محيطه أو طبيعة رسالته. قال الزجاج: "طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى فأعلم الله أنّ لكل قوم هادياً" (٤١).

ومنها: ما حكاه الرازي عن ابن عباس: وضع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يده على صدره فقال: "أنا المنذر" ثم أوماً الى منكب علي(رضي الله عنه)، وقال: "أنت الهادي، يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي" (٤٢). وقريب منه ما رواه الحسكاني.

وهذا قريب من الوجه السابق، ومرجعه ان الهادي هو الذي يربط الناس بالرسالة سواء كان الحجة الناطقة أم الصامتة كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم) "إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي".

ب - ان هذا التفسير مبني على تفسير (القوم) بالذين تجمعهم قومية واحدة بالمفهوم المعاصر، وهو بعيد عن المعنى اللغوي، قال الخليل في كتاب العين: قوم كلّ رجل شيعته وعشيرته، وقال في عشيرك: الذي يعاشرك، أمركما واحد.. وسميت عشيرة الرجل لمعاشرة بعضهم بعضاً(٤٣).

والاستعمال القرآني الشائع للقوم جاء بهذا المعنى (والله لا يهدي القوم الظالمين) (٤٤)، (والله لا يهدي القوم الكافرين) (٤٥)، (والله لا يهدي القوم الفاسقين) (٤٦)، والمقابلة بين القوم الظالمين ونحوهم والقوم المؤمنين التي يؤكدّها القرآن خير شاهد على

هذا المعنى باعتبار أن الايمان يجمع المؤمنين والكفر والفسق يجمع الآخرين، مع ان من الطرفين من تجمعهم قومية واحدة، وعلى هذا فالقوم في الآية هم المسلمون المهتدون به من أي عرق أو قومية كانوا وفي كل العصور، فيكون (القوم) بمعنى الأمة في قوله تعالى: (إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (٤٧).

ج - ان هذه الآية نزلت في المدينة - قيل بالإجماع - مما يؤكد ان (القوم) لا يقصد به قريش أو أهل مكة بالخصوص، كما ان ارادة خصوص العرب ترفضه الشواهد التاريخية التي تؤكد ان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يتعامل بهذا المنظار، فلم يكن يفرّق بين الروم وعرب الشام، ولا الفرس وعرب العراق، بحيث لم يفهم أحد آنذاك تميّز العرب بالدعوة، خاصة ان الأفكار القومية لم تكن معروفة آنذاك.

د - إنّ وجود العديد من الصحابة غير العرب مثل سلمان الفارسي وبلال وصهيب وغيرهم ينفي هذا التمييز، خاصة سلمان الذي كان مسيحياً موحّداً، فلو لم يكن الإسلام ديناً أمميّاً لم يكن هناك موجب لاعتناقه له.

هـ - إرسال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) الرسل الى الملوك غير العرب ينافي هذا الفهم - كما سيأتي الحديث عنه -.

"الدرس الثامن"

٢) قوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدّق الذي بين يديه ولنتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون) (٤٨).

وقريب منها في سورة الشورى: (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لأريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير) (٤٩).

وجه الشبهة ان هدف الوحي الى الرسول كان إنذار أهل مكة ومن حولها ممّن هو قريب منها.

والجواب عنها من وجوه..

أ - ان هذا بيّنتي على تفسير الحول بالقرب، مع ان القرآن استخدمه بغير ذلك ففي سورة الأحقاف: (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) (٥٠).

قال الطبرسي: "معناه: ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حولكم، وهم قوم هود وكانوا باليمن وقوم صالح بالحجر وقوم لوط على طريقهم الى الشام" (٥١). وكذا في سورة العنكبوت: (أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) (٥٢).

ب - الملحوظ في الآية أنها لم تعبر (مكة وما حولها) وهذا يكشف عن ان المنظار ليس هو البقعة وما يحيط بها جغرافياً، بل في كلتا الآيتين جاء التعبير ب (أم القرى) وكأنه لتأكيد مركزية مكة بالنسبة للبقاع الأخرى بسبب وجود الكعبة والبيت الحرام فيها، والعرب تسمي كل أمر جامع يُجتمَع عليه (أماً). ولذا ورد عن ابن عباس أن سبب تسمية مكة بذلك أنّ الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها، وقال أبو بكر الأصم: (سمّيت بذلك لأنها قبلة أهل الدنيا فصارت هي كالأصل وسائر البلاد و القرى تابعة لها) (٥٣).

فاختصاص هذا الاسم بمكة خير شاهد على عدم النظر إليها بما أنّها بقعة معيّنة.

ج - إنّ هذا التفسير يجعل الرسالة محدودة بحدود جغرافية ضيقة، وهذا خلاف الضروري من سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). والشواهد الأخرى التي سوف نذكرها.

د - لو فرضنا ظهور الآيتين في البقعة الجغرافية فقد يكون من باب التأكيد نظير (وأندر عشيرتك الأقربين) (٥٤) و(اخفض جناحك للمؤمنين) (٥٥)، أو التدرج في الدعوة للإسلام باعتبار أنّهم كانوا المباشرين آنذاك، ومن المعلوم ان القرآن ابتنى على ملاحظة المناسبات والتأكيد على ذكر الخصوصيات، نظير قوله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) (٥٦) على التفسير القائل أنّهم أهل مكة - مع أنّ سورة الجمعة مدنية - فلم يستنكر ذلك أحد من المسلمين ولم يراوده تساؤل عن اختصاص الرسالة بأهل مكة.

ومما يشهد بعدم ورود الآية الكريمة في مقام الحصر الحقيقي، قوله: (وتنذر يوم الجمع) (٥٧) حيث لا إشكال في ان الهدف من إنزال القرآن ليس مجرد الإنذار ليوم الجمع..

هـ - إنّ قوله تعالى: (... والذين يؤمنون بالآخرة...) يشمل كل المنتسبين للأديان السماوية وهو لا يلتئم مع اختصاص الرسالة بأهل مكة ومن حولها، خصوصاً مع ندرة وجودهم في هذه المنطقة.

الأمر الثاني: الأدلة والشواهد - القرآنية وغيرها - الدالة على أممية الإسلام. وهي كثيرة جداً، منها:

- ١ - قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) (٥٨). ونظيرها ما في سورتى التوبة والصف.
- ٢ - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) (٥٩). ونظيرها كثير من الآيات التي تخاطب أهل الكتاب.
- ٣ - (وما أرسلناك إلا كافة للناس) (٦٠) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٦١) ونحوهما كثير من الآيات التي تؤكد شمولية الرسالة الإسلامية.
- ٤ - (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) (٦٢) ونحوها مما دل على تبشير غير العرب برسالته (صلى الله عليه وآله وسلم).
- ٥ - (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٦٣). حيث دلت على شمول رسالته لغير العرب، وان اليهود كانوا يترقبون بعثته.
- ٦ - (إن الدين عند الله الإسلام) (٦٤). (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) (٦٥) ونحوها من الآيات.
- ٧ - (وقل للذين أتوا الكتاب والأمةين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) (٦٦) وكذا غيرها من آيات المحاجة وتحدي أهل الكتاب، مثل آية المباحلة.
- ٨ - تعامل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أهل الكتاب ودعوته لهم باتباعه كما دعا المشركين الى ذلك.
- ٩ - موقف أهل الكتاب من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتوجسهم من دعوته، لعلمهم بأنه يستهدفهم في دعوته.
- ١٠ - إسلام العديد من الصحابة ممن كانوا من أهل الكتاب ومن غير العرب كالنجاشي وبلال وسلمان وصهيب، وكذلك غيرهم من الأجيال اللاحقة.
- ١١ - رسائل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى ملوك فارس والروم والحبشة، ودعوتهم للإيمان برسالة الإسلام.
- ١٢ - الإخبارات الغيبية للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن دخول شعوب غير عربية في الإسلام.

١٣ - موقف الأئمة (عليهم السلام) وعدم ردعهم عن قضية الفتوحات - رغم التحفظات على الواقع القائم وبعض الممارسات خلال الفتوحات -.

١٤ - طبيعة التشريعات المرتبطة بالتعامل مع غير المسلمين، مثل أحكام الجزية ونحوها المعبرة عن خطة المشرع الإسلامي لجذب أهل الكتاب وغيرهم للإسلام.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/١٤٠.

(٢) الجامع الصحيح: ١ / ٥٢ باب الحرص على الحديث.

(٣) الذريعة: ٢٠/١٥٤ - ١٥٥.

(٤) الذريعة: ٤/٢٧٦، ١٠٨/٢٤. بحار الأنوار: ١/١٥.

(٥) أعيان الشيعة: ١/٣٢١.

(٦) راجع تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين.

(٧) مناهل العرفان: ١ / ٣٦.

(٨) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٥.

(٩) نهج البلاغة، الخطبة: ٣١٦.

(١٠) سورة الإسراء: ٩.

(١١) سورة الحشر: ٢١.

(١٢) سورة يونس: ٣٧.

(١٣) سورة هود: ١٣.

(١٤) سورة يونس: ٣٨.

(١٥) سورة غافر: ١ - ٣.

(١٦) يراجع مجمع البيان: ١٠ / ٨٥٤.

(١٧) يراجع تلخيص التمهيد: ٢ / ٢٦ وما بعدها.

(١٨) سورة يونس: ١٦.

(١٩) التفسير الكبير: ٢ / ١١٦.

(٢٠) سورة العنكبوت: ٤٨.

(٢١) سورة النساء: ٨٢.

(٢٢) مناهل العرفان، ج: ٢ / ٤٤٣.

(٢٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٦١/١٨ تحقيق صبحي الصالح.

(٢٤) سورة الروم: ١ - ٦.

(٢٥) سورة الإسراء: ٦٠.

(٢٦) حكاية في الدر المنثور عن ابن جرير عن سهل بن سعد، وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة، وأيضاً عن ابن مردويه عن الحسين بن علي، وأيضاً عن البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن سعيد بن المسيب، وعن آخرين. ان المقصود من الشجرة الملعونة هم بنو أمية.

(٢٧) يراجع تاريخ الامم والملوك للطبري: ٢٧/٣ و ٢٩، وغيره.

(٢٨) يراجع الكامل في التاريخ: ٩٢ / ٢.

(٢٩) يُراجع ماكتبه مصطفى محمود في هذا المجال، وغيره.

(٣٠) الأمالي للشيخ الطوسي: ٣١٥، مناقب آل أبي طالب ٢١٣:٣، بحار الأنوار ٢٢٧:٤٥ و ٢٣١.

(٣١) يراجع كتاب تاريخ وعلوم قرآن: ١٨٦ و ١٨٩.

(٣٢) المختصر النافع: ١٧، وقريب منه ما في سنن الترمذي: ١٧٢ / ٥.

(٣٣) عيون أخبار الرضا: ٧: ٢٣٩.

(٣٤) تصنيف نهج البلاغة: ٢١٣.

(٣٥) الكافي: ٦٩/١. وسائل الشيعة: ٧٦/١٨ وما بعدها.

(٣٦) سورة الرعد: ٧.

(٣٧) سورة الإسراء: ٩.

(٣٨) سورة سبأ: ٦.

(٣٩) سورة الاحقاف: ٣٠.

(٤٠) سورة الجن: ٢-١.

(٤١) مجمع البيان: ٤٢٧/٥.

(٤٢) التفسير الكبير: ١٤/١٠.

(٤٣) ترتيب كتاب العين: ٥٤٥، ٦٩٣.

(٤٤) سورة الصف: ٧.

(٤٥) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٤٦) سورة المائدة: ١٠٨.

(٤٧) سورة الانبياء: ٩٢.

(٤٨) سورة الأنعام: ٩٢.

(٤٩) سورة الثورى: ٧.

(٥٠) سورة الاحقاف: ٢٧.

(٥١) مجمع البيان: ١٣٨/٩.

(٥٢) سورة العنكبوت: ٦٧.

(٥٣) التفسير الكبير: ٨١/١٣.

(٥٤) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٥٥) سورة الحجر: ٨٨.

(٥٦) سورة الجمعة: ٢.

(٥٧) سورة الشورى: ٧.

(٥٨) سورة الفتح: ٢٨.

(٥٩) سورة المائدة: ١٩.

(٦٠) سورة سبأ: ٢٨.

(٦١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٦٢) سورة الصف: ٦.

(٦٣) سورة البقرة: ٨٩.

(٦٤) سورة آل عمران: ١٩.

(٦٥) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٦٦) سورة آل عمران: ٢٠.

"الدرس التاسع"

حجّية الدلالة القرآنية

نقصد من هذا البحث ان القرآن ليس مبهماً يتعدّر على الأمة فهمه، وإّما من حق العالم والمتخصص - وأحياناً الانسان العادي - أن يعتمد على ما يفهمه منه.

ويندرج تحت هذا البحث مسألة حجية ظواهر القرآن التي يبحثها علماء أصول الفقه، حيث أكدوا أنّ ظهورات القرآن حجة، فضلاً عما هو صريح فيه.

ويمكن أن نستشهد لذلك بمجموعة من الشواهد من نفس القرآن ومن غيره، وهي..

١ - مجموعة من الآيات الكريمة الواضحة في دعوتها للتأمل والتمعن في القرآن الكريم.

منها: قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (١).

ومنها: قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٢).

ومنها: قوله تعالى: (وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) (٣).

ومنها: قوله تعالى: (إنّ هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) (٤).

وهناك آيات أخرى كثيرة تشهد ان إنزال القرآن لأجل أن يتفهّمه الناس ممّا يؤكد أنّه قابل للفهم بالتأمّل والتدبّر.

نعم قد يتوهم البعض ان القرآن اشتمل على المحكم والمتشابه وان تمييز أحدهما عن الآخر غير ممكن لنا، وسوف يأتي البحث عن ذلك في باب المحكم والمتشابه إن شاء الله تعالى.

٢ - ورود النصوص الكثيرة التي تدعو المسلمين الى الرجوع للقرآن والالتزام والعمل به فيكشف هذا عن إمكانية فهمه من جانبهم - ولو من خلال علمائهم -.

منها: حديث الثقلين: "إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما" (٥).

ومنها: قول الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة: "جعل الله رياء لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس بعده ظلمة.. وبرهاناً لمن تكلم به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به.. وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى" (٦).

ومنها: قوله (عليه السلام) في نهج البلاغة أيضاً: "كتاب ربكم فيكم مبيّناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه وخاصه وعامه مفسراً مجمله ومبيّناً غوامضه.."، وهناك نصوص كثيرة جداً في السنّة تدعو الى العمل بالقرآن والرجوع إليه.

ومنها: مجموعة من النصوص التي يُوجّه فيها أهل البيت (عليهم السلام) أصحابهم الى القرآن، مثل ما رواه عبدالأعلى في حكم من عثر فقطع ظفره فجعل على اصبعه مرارة، فقال الامام الصادق (عليه السلام): "يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّوجل، قال الله تعالى: (ما جعل عليكم في الدين من حرج) امسح عليه" (٧).

فالقرآن إذن - كما يبدو من هذه النصوص وغيرها - ليس كتاب رموز وألغاز بحيث لا يحقّ للناس الرجوع إليه ولا يمكنهم فهمه، وإّما هو كتاب هداية يفترض في المسلمين التمعن فيه والاهتداء بهديه.

"الدرس العاشر"

نعم قد يبدو من بعض النصوص أنّه لا يمكن الاعتماد على ما يفهمه الإنسان من القرآن إلا بعد الرجوع لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)..

منها: صحيحة منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام): إنّ الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه.. الى أن قال: وقلت للناس: أليس تعلمون ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى، قلت: فحين مضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من كان الحجة على خلقه؟ قالوا: القرآن، فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجىء والقدرى والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت ان القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، فما قال فيه من شيء كان حقاً... الى أن قال: فأشهد أنّ علياً (عليه السلام) كان قيم القرآن، وكانت طاعته مفترضة وكان الحجة على الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنّ ما قاله في القرآن فهو حق، فقال: "رحمك الله" (٨).

ومنها: رواية عبيدة السلماني... فقام عبيدة وعلقمة والأسود وأناس معهم فقالوا: يا أمير المؤمنين فما تصنع بما قد خُبرنا به في المصحف؟ فقال: يُسأل عن ذلك آل محمد (٩).

وهناك مجموعة أخرى من النصوص المماثلة.

ولكن التأمل الدقيق في مجموع الروايات الواردة في الموضوع يوضح انه ليس المقصود عدم الاعتماد على كل ما يفهمه الإنسان من القرآن، وإنما ذلك في نمط من الآيات وفي مستوى معيّن من الفهم فحسب، وذلك ان آيات القرآن على ثلاثة أصناف..

الصنف الأول: هي الآيات الواضحة التي يفهم معناها - ولو فهماً بسيطاً - كل من كانت لديه معرفة باللغة العربية مثل كثير من الآيات المشتملة على تمجيد الله وحمده والثناء عليه، وكذا مجموعة من الآيات الأمرة بالمعروف والداعية الى الاتصاف بالصفات والخصال الحسنة، والآيات الناهية عن المنكر وتجنب الظلم والفواحش وذم الخصال السيئة، وكثير من الآيات غيرها.

الصنف الثاني: الآيات التي يفهم معناها العلماء والمتخصصون بالمعارف والعلوم الإسلامية، وهي الآيات التي تتطلب مستوى رفيعاً لمعرفة معناها، وأحياناً آية واحدة تحمل معنى سطحياً يفهمه الناس عامّة ومعنى أعمق لا يدركه إلا العلماء والمتخصصون مثل بعض الآيات التي تتحدث عن التوحيد وصفات الله، وبعض المفاهيم المذكورة في القرآن مثل الحكمة، وحبط العمل، والهداية، وغير ذلك.

الصنف الثالث: وهي الآيات الغامضة والتي ترمز الى معان في غاية الدقة مثل القضاء والقدر، أو تشير الى الأمور الغيبية مثل عوالم ما بعد الموت أو آيات الأحكام القابلة للنسخ والتخصيص ونحو ذلك، وآيات أخرى كثيرة متعارضة - بظاهرها - فيما بينها، وكذلك المعاني العميقة والدقيقة لكثير من الآيات.

أمّا الصنف الأول من الآيات وأحياناً الفهم البسيط لبعض الآيات الأخرى فلا يحتاج فيه للرجوع الى أحد حيث يفهمه الناس بشكل عام، كما تدل على ذلك مجموعة من النصوص المتقدم بعضها.

بالإضافة الى سيرة المسلمين والمؤمنين على مرّ العصور حيث كانوا يقرؤون القرآن بتمعن وخشوع ويذكر بعضهم بعضاً بالآيات القرآنية، ومن دون ذلك يتحول القرآن الى كتاب ألغاز ورموز ويفقد فاعليته وتأثيره بين الناس، ويفقد ميزته البلاغية المعجزة.

ولعل الى هذا المعنى يشير ابن خلدون بقوله: "إنّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" (١٠).

أمّا الصنف الثاني فإنّه في متناول العلماء والمتخصصين يغترفون منه ما يمكنهم استيعابه ويفهمون معاني أعمق وأدق مما يفهمه العامّة، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالتمعن في القرآن الكريم والاستفادة القصوى منه وعدم الاكتفاء بالفهم العابر الذي يتحقق لدى كل قارئ عربي.

نعم نحن نعتقد ان من جملة ما يمنح العلماء قدرةً على سبر أغوار القرآن، ويقربهم من الفهم الصحيح للآيات القرآنية هو رجوعهم إلى أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) والأنس بمنطقهم والتثقف بعلومهم، لأنهم قرين القرآن وعديله كما ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأتبعهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" (١١).

وأما الصنف الثالث فهو الصنف الذي لا بد فيه من مراجعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام)، فهم المطلعون على أسرار كتاب الله العزيز والمحيطون بحدود التشريع حيث يعتبر هذا من جملة مزاياهم التي تميزوا بها على غيرهم، ولذلك تضمنت كثير من النصوص التي تدعو إلى الرجوع للأئمة (عليهم السلام) بيان أنهم الراسخون في العلم، وأنهم العارفون بالتأويل والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك مما يدل على أن ضرورة الرجوع إليهم إنما هو في هذا النمط الخاص من الآيات أو في نمط خاص من الفهم الأعمق للآيات الكريمة (١٢) فحسب.

ويؤكد ما ذكرناه من النصوص..

منها: رواية زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، قال: "تفسير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان ومنه ما لم يكن بعد، يعرفه الأئمة (عليهم السلام)" (١٣).

ومنها: رواية إسماعيل بن جابر عن الصادق (عليه السلام) (١٤).. إلى أن قال: ثم سأله (عليه السلام) عن تفسير المحكم من كتاب الله، قال: "أما المحكم الذي لم ينسخه شيء ف قوله عز وجل: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (١٥) الآية، وإنما هلك الناس في المتشابه، لأنهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بأرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء ونبذوا قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وراء ظهورهم... الحديث (١٦).

حيث يبدو من الحديث اختصاص الأوصياء بخصوص المتشابه الذي هلك به الناس، وان الناس في ذلك فقط نبذوا قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنها: ما عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في احتجاجه على زنديق سأله عن آيات متشابهات من القرآن فأجابته - إلى أن قال -: "ثم إن الله قسم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعلمه إلا الله وملائكته والراسخون في العلم... الخ (١٧).

وقد اتضح من خلال ما تقدم أن ما سوى الصنف الثالث يمكن للعالم المتخصص البصير بلغة القرآن وأحاديث الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل البيت(عليهم السلام) أن يفهمه من القرآن الكريم ويستنير بهداه.

وأما الصنف الثالث فبعضه مبيّن في النصوص الواردة عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل البيت(عليهم السلام)، لكن يجب توخي النصوص المعتبرة التي يمكن الاعتماد عليها. ولا يكفي مجرد ورود الرواية عنهم صلوات الله عليهم.

الأسئلة

١ - قوله تعالى: (.. إنّما أنت منذرٌ لكل قوم هاد) قد يدّعى أنّه لا ينسجم مع كون الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) هادياً للبشرية جمعاء بل للعرب فقط، اذكر أربعة من الشواهد على ردّ هذا الادّعاء.

٢ - قوله تعالى: (لتنذر أمّ القرى ومن حولها) قد يُفهم منه أنّه لا يلتئم مع ادّعاء أمميّة الإسلام، وإنّه مختص بأهل مكة وما حولها، اذكر خمسة من الشواهد على إبطال هذه الشبهة.

٣ - اذكر الأنحاء الثلاثة من الآيات أو الفهم القرآني.

٤ - كيف نوفق بين دعوة القرآن والسنة إلى التدبر في الآيات وبين النصوص التي تؤكد أن القرآن لا يفهمه إلا النبي أو الإمام؟

"الدرس الحادي عشر"

المحكم والمتشابه

تعرّض القرآن الكريم للمحكم والمتشابه من الآيات، وذكر أن هناك فارقاً هاماً بينهما حيث يحقّ للناس اتباع المحكم، بينما المتشابه لا يتبعه إلا المنحرفون لأجل أهدافهم المنحرفة بغية الفتنة.

ومن هنا كان لزاماً علينا تمييز المحكم عن المتشابه لنكون على بصيرة في تعاملنا مع الآيات القرآنية الكريمة.

المعنى اللغوي:

ذكرت لمادة الإحكام عدة معان لغوية نذكر منها..

(١) الإتقان.

(٢) ان المحكم هو الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب.

(٣) المنع، والردّ عن الظلم، وعن الأصمعي: "أصل الحكومة ردّ الرجل عن الظلم"، قال: ومنه سمّيت حكمة اللجام لأنها ترد الدابة، وعن جرير: "أحكّموا سفهاءكم أي امنعواهم".

كما دُكرت لمادة المتشابه في اللغة عدة معان:

(١) التشابه. قال ابن منظور: "فإنّ أهل اللغة قالوا معنى (متشابهاً) يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن".

(٢) الالتباس بسبب قوة الشبه، قال في القاموس: تشابها واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا.

وفي القرآن الكريم وقعا وصفين للقرآن وللآيات الكريمة في عدة آيات:

١ - قوله تعالى: (ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (١٨).

٢ - قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم) (١٩).

٣ - قوله تعالى: (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك...) (٢٠).

٤ - قوله تعالى: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخرُ متشابهاً فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمناً به كلٌّ من عند ربّنا وما يدكر إلا أولو الألباب) (٢١).

ويتركز البحث هنا عن الآية الرابعة ومن خلال ذلك يتضح معنى الآية الثالثة.

ونشير - بايجاز - الى ما ذكره المفسرون حول الإحكام والتشابه في الآيتين الأوليين رغم أنهما أجنبيتان عن بحثنا هنا.

أما الآية الأولى فقد ذكر الشيخ الطوسي في تفسيرها أن الإحكام منعُ الفعل من الفساد، وحكي عن مجاهد أنه قال (أحكمت آياته) على وجه الجملة (ثم فصلت) أي تبيّنت بذكرها آية آية (٢٢). واقتبس منه السيد الطباطبائي حيث قال: "المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول، وهي كونه واحداً لم يطرأ عليه التجزي والتبعض بعد بتكثر الآيات، فهو اتقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام والأتقان الذي لبعض آياته بالنسبة الى بعض آخر - يشير(قدس سره) للآية الرابعة - من جهة امتناعها عن التشابه في المراد"(٢٣).

والذي نرجّحه - والله العالم - أن وصف الآيات بالإحكام باعتبار مضمونها وأنه المنهج المستقيم والحقائق الثابتة المحكمة التي لا يشوبها الباطل، بعكس المناهج الجوفاء للمبادئ المنحرفة، كما في قوله تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) (٢٤). وعلى هذا التوجيه يتضح الوجه في عطف التفصيل على الإحكام في الآية، باعتبار أن التفصيل في مرحلة بيان تلك المضامين المحكمة وهو متأخر عن طبيعة تلك المضامين.

وأما الآية الثانية فقد قال فيها الشيخ الطوسي(قدس سره): متشابهاً في الحكم التي فيه من الحجج والمواظ والأحكام التي يعمل عليها في الدين وصلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه(٢٥).

وقال السيد الطباطبائي(قدس سره) في تفسير التشابه في هذه الآية بـ"كون آياته ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم واتقان الأسلوب وبيان الحقائق والحكم والهداية الى صريح الحق كما تدل عليه القيود المأخوذة في الآية، فهذا التشابه وصف لجميع الكتاب..."(٢٦) هذا كله فيما يرتبط بالآيتين الأوليين.

"الدرس الثاني عشر"

وأما الآية الرابعة - وهي المقصودة بالبحث هنا - فقد اختلف المفسرون في تفسير الإحكام والتشابه الواردين فيها اختلافاً شاسعاً.

كما اختلفوا في سبب نزولها فقيل: أنه عنى به وفد نجران لما حاججوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أمر عيسى (عليه السلام) وسألوه فقالوا: أليس هو كلمة الله وروحاً منه، فقال: بلى، فقالوا: حسبنا، فأنزل الله (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه...) إلخ.

وقيل: هم اليهود طلبوا علم أكل هذه الأمة أي مقدار رزقها وحظها من الدنيا.

وقيل هم المنافقون (٢٧). وقيل غير ذلك...

ونشير هنا الى أهم الآراء في تفسير الأحكام والتشابه في هذه الآية:

(١) إنَّ المحكم هو المبين، والمتشابه هو المجمل.

(٢) إنَّ المحكم من القرآن الآيات الناسخة، والمتشابه الآيات المنسوخة.

(٣) إنَّ المحكم ما يكون هناك دليل على معناه سواء كان ذلك الدليل واضحاً أم خفياً، والمتشابه ما لا يكون هناك دليل عليه يمكن الرجوع إليه ليبدل عليه، مثل وقت قيام الساعة. ونسب الزرقاني هذا الرأي لمن سمّاهم أهل السنة (٢٨).

(٤) إنَّ المحكم ما يراد منه ظاهره، والمتشابه ما يراد منه خلاف ظاهره.

(٥) إنَّ المراد بالمتشابه كون الآية بحيث لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها، بل يتردد بين معنى ومعنى حتى يرجع الى محكمات الكتاب فتعيّن هي معناها وتبينها بياناً، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة بنفسها.

وهذا الرأي اختاره السيد الطباطبائي، وذكر (قدس سره) ان سبب وصف المحكمات بأنها أم الكتاب - والأم بحسب أصل معناه ما يرجع إليه الشيء - ليس إلا أن الآيات المتشابهة ترجع إليها. فالبعض من الكتاب - وهي المتشابهة - ترجع الى بعض آخر - وهي المحكمات - قال: "ومن هنا يظهر أن الإضافة في قوله: أم الكتاب ليست لامية كقولنا: أم الأطفال، بل هي بمعنى (من) كقولنا: نساء القوم، وقدماء الفقهاء ونحو ذلك، فالكتاب يشتمل على آيات هي أم آيات آخر، وفي أفراد كلمة الأم من غير جمع دلالة على كون المحكمات غير مختلفة في أنفسها، بل هي متففة مؤتلفة" (٢٩).

ونحن عندما نتمعن في الآية الكريمة نلاحظ ما يلي:

١ - إنها قسّمت الآيات الى قسمين، ويبدو منها أن القسمين متباينان وغير متداخلين، فلكل منهما وصف خاص وأتباع معيّنون، حيث انّ المحكمات أمّ الكتاب، بينما المتشابهات ليست كذلك، كما أنّها تتميز ثانياً بأنّ تأويلها مختص بالله تعالى أو بما يشمل الراسخين في العلم. وثالثاً أن أتباعها الذين في قلوبهم زيغ، بخلاف المحكمات.

٢ - وصف المحكمات بأنّها أمّ الكتاب، قال الرازي في توجيه ذلك: الأم في حقيقة اللغة الأصل الذي يكون منه الشيء، فلما كانت المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشابهات إنّما تصير مفهومة بإعانة المحكمات، لاجرم صارت المحكمات كالأمّ للمتشابهات(٣٠).

وعلى هذا - الذي بنى عليه كثير من العلماء - تكون الآيات المحكمات مرجعاً لفهم الآيات المتشابهة، وأنّها ليست أجنبية عنها.

٣ - ان الآية الكريمة فرضت إمكانية اتباع الآيات المتشابهة، ومعنى هذا ان الآيات المتشابهة ليست بالضرورة تكون مبهمة يمتنع اتباعها، كالحروف المقطعة ونحوها - على فرض ابهامها المطلق - بل ربّما يُفهم من الآية ان هناك ظهوراً للآيات المتشابهة في معنى ما، وأنّها ليست موجبة للحيرة المطلقة والإبهام وإلا لم يصلح ولم يصدق الاتباع لها.

٤ - يبدو من الآية الكريمة ان أتباع المتشابه هم أهل الزيغ والمنحرفون، ولا يشمل كل من أخطأ في فهم القرآن، بل ربّما يفهم منها ان هدف المنحرفين من اتباع المتشابه هو الفتنة من خلال التفسير الكيفي الموافق لأهوائهم.

ومن مجموع هذه الملاحظات وبعض الشواهد الأخرى يمكن أن نفهم المقصود من المحكم والمتشابه في الآية الكريمة... بأنّ هناك مجموعة من الآيات تنافي بظاهرها بعض المفاهيم أو الأحكام الإسلامية التي دلّت عليها الشواهد والأدلة المعتبرة - سواء كان القرآن الكريم نفسه أمّ السّنة أم حكم العقل اليقيني - فتوجب وقوع الإنسان في الالتباس وسوء الفهم - كما تدل عليه لفظة المتشابه -، مما يفتح المجال للمنحرفين كي يبثوا سمومهم ويثيروا الشبهات حول القرآن الكريم أو الإسلام أو بعض التعاليم الصحيحة، وهذه هي الآيات المتشابهة التي أمر الله سبحانه المسلمين أن يتعاملوا معها بتعقل وروية، فلا هم ينزلقون في منزلق المنحرفين ولا هم يرفضون انتسابها للقرآن مثلاً، بل يؤمنون بها إجمالاً موكلين بتحديد معانيها التفصيلية لله سبحانه ولو من خلال من خصّهم بتعليمها.

ورغم وجود هذه المجموعة من الآيات فإنّه لا يؤثر على دور القرآن الرئيسي وأهميته باعتباره كتاب هداية ومناراً، لأنّ المحكمات من الآيات متكفلة للقيام بهذا الدور ووافية به، وكأنّ التعبير بأمّ الكتاب يشير الى ذلك. والله سبحانه العالم.

وعندما نرجع الى السّنة نجد مجموعة من النصوص تشير الى المحكم والمتشابه بما ينسجم مع هذا المعنى، منها:

١ - ما ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): "وإنّ القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، ولكن نزل يصدّق بعضه بعضاً، فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فأمنوا به"(٣١).

٢ - وعن الإمام الصادق(عليه السلام): "المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله"(٣٢).

٣ - وعن الإمام الرضا(عليه السلام): "من ردّ متشابه القرآن الى محكمه هُدي الى صراط مستقيم - ثم قال - إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن فردّوا متشابهها الى محكمها ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا"(٣٣).

وقد يتساءل المرء عن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وللإجابة على ذلك نشير الى أمرين قد تكمن فيهما حكمة وجود المتشابه:

الأول: تأكيد حالة التعبّد والخضوع العملي لله تعالى، لأن الحياة مليئة بالفتن والاختبارات المتنوّعة، كما شاء الله لها ذلك (ا لم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (٣٤) وما لم تتأكد قضية التعبّد في نفس المؤمن يضعف ارتباطه الروحي بالله تعالى ولا يلبث أن يزيغ متأثراً بالمنحرفين من أصحاب المواهب القادرين على التأثير في مستمعهم وأتباعهم.

الثاني: توجيه المسلم الى التمسك بالمنهج الإلهي للطاعة، والحجج الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا سبلاً الى هدايته، بدلاً من التخبّط يميناً وشمالاً تبعاً لاحتمالات واستحسانات تفتقر الى الحجة والبرهان، كما يحدث ذلك بتأثير الغرور النفسي الذي يصدّ الانسان عن الاعتراف بالجهل والعجز. والله العالم.

"الدرس الثالث عشر"

النسخ في القرآن

النسخ في اللغة يستعمل في عدة معان، منها..

(١) الإزالة(٣٥)، مثل: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) (٣٦).

٢) نقل الشيء وتحويله مع بقاءه، فعن السجستاني: النسخ ان تحوّل ما في الخلية من العسل و النحل في أخرى(٣٧).

وأما في الاصطلاح ف" هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمدّه وزمانه، سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية أم الوضعية، وسواء أكان من المناصب الإلهية أم غيرها من الامور التي ترجع الى الله تعالى بما أنه شارع"(٣٨).

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن النسخ في القرآن بل في الشريعة بشكل عام لا يستند الى انكشاف أمر مجهول لله سبحانه وتعالى، بل يرجع الى مجرد نقض دلالة الدليل السابق أو ظهور حالة في الدوام.

وهذا نظير معنى البداء الذي ورد في العديد من النصوص حيث لا يراد منه أنه ينكشف لله تعالى وجه الصلاح والفساد في الشيء، لأنّ الله سبحانه عالم بالخفيات وبحقائق الأمور كلّها ولا تخفى عليه خافية، بل المراد به "ظهور أمر أو أجل كان محتملاً عنده تعالى من الأزل وخافياً على الناس ثم بدا لهم أي ظهرت لهم الحقيقة"(٣٩).

والفرق بين النسخ والبداء المذكور هو ان النسخ يكون في الأحكام أو في آيات القرآن، بينما البداء في التكوينيات أو غيرها من الأمور الاعتبارية غير الفقهية.

والفرق بين النسخ والتخصيص: ان النسخ تخصيص أزمانى، والثاني تخصيص أفرادى.

وعلى كل حال فقد أكدت المصادر الإسلامية، ومنها القرآن الكريم نفسه تحقق النسخ في القرآن قال تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها..)(٤٠).

هذا، وقد ذكروا للنسخ في القرآن ثلاثة أقسام..

الأول: نسخ الحكم والتلاوة

بمعنى أن تنزل آية بمضمون ينافي مضمون آية أخرى فتحذف الآية الأولى وينتهي أمد مضمونها.

وقد أثبت كثير من أبناء العامة أو أكثرهم هذا القسم معتمدين على أحاديث تضمنتها كتبهم المعتمدة..

منها: ما أسندوا الى عائشة أنّها قالت: "كان فيما أنزل من القرآن "عشر رضعات معلومات يحرمّ من" ثم نسخن "بخمس معلومات" قالت: وتوفي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهن فيما يقرأ من القرآن"(٤١).

ونلاحظ ان مضمون هذه الرواية - الصحيحة عندهم - غريب جداً، حيث يفترض بقاء الآية المزعومة الى ما بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فنتسائل: أنّها كيف اختفت؟ ومن أخفاها بعده(٤٢)؟

وقد ادّعى الزرقاني إجماع القائلين بالنسخ على وقوع هذا القسم، ويقصد بهم خصوص (أهل السنة). متجاهلاً تماماً آراء العلماء من شيعة أهل البيت(عليهم السلام) حيث أنكروا هذا النوع من النسخ، ووافقهم في ذلك بعض العامة كالسرخسي والجزيري(٤٣).

"الدرس الرابع عشر"

الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم

بمعنى أن ترفع تلاوة آية من القرآن الكريم سواء لم تكن من آيات التشريع أم كانت، لكن حكمها يبقى غير منسوخ.

وقد التزم بوقوع هذا القسم عدد كبير أو العدد الأكبر من علماء العامة حتى السرخسي وابن حزم. واعتبروا من ضمنها ما ورد من النصوص التي تضمنتها كتبهم المعتمدة..

منها: ما صحّت روايته عندهم عن عمر بن الخطاب أنّه قال: كان فيما أنزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة) (٤٤).

وفي لفظ أبي داوود: " .. وأيم الله لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله عزّ وجلّ لكتبتها"، ونظير ذلك في موطأ مالك.

ومنها: ما رووه عن أبي موسى الأشعري من قوله: " .. وإنا كنّا نقرأ سورة كنّا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيئها غير أني قد حفظتُ منها "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً* ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب" وكنّا نقرأ سورة كنّا

نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيئها غير أنني حفظتُ منها "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فثُكِّبُ شهادةً في أعناقكم فتُسالون عنها يوم القيام" (٤٥).

وكذلك رواية أبي بن كعب: "أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له: إن الله أمرني أن أقرأ عليك، فقرأ عليه (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) فقرأ فيها: إن ذات الدين عند الله الحنيفة المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية. من يعمل خيراً فلن يكفره. وقرأ عليه "ولو أن لابن آدم وادياً من مال لا يتغى إليه ثانياً، ولو كان له ثانياً لا يتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب" (٤٦).

ومنها: ما رووا أن أبابكر كان يقرأ (لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم) وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال: ثم إننا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله (أن لا ترغبوا عن آبائكم) أو (ان كُفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم) (٤٧).

ومنها: ما رووا أن أنس بن مالك كان يقول: قرأنا في القرآن (بلغوا عنا قومنا إننا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا) (٤٨).

ومنها: ما رووه عن عبدالله بن عمر: لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله، ما يدرية ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقبل: قد أخذت منه ما ظهر (٤٩).

هذا وقد رووا عن عائشة قولها: قد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها (٥٠).

وقد رووا روايات أخرى كثيرة تؤكد الحذف والزيادة بالنسبة للقرآن الذي كان في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنهم سمّوه نسخاً لا تحريفاً!

وقد رفض علماء الشيعة - كما سنلاحظ - هذين النوعين، فعن الشيخ المفيد "والنسخ عندي في القرآن إنما هو نسخ متضمنه من الأحكام، وليس هو رفع أعيان المنزل منه، كما ذهب إليه كثير من أهل الخلاف... وهذا مذهب الشيعة وجماعة من أصحاب الحديث وأكثر المحكّمة والزيدية، ويخالف فيه المعتزلة وجماعة من المجبّرة، ويزعمون أن النسخ قد وقع في أعيان الآي كما وقع في القرآن" (٥١).

الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة

وهذا هو المعروف بين العلماء والمفسرين قيل: "واتفق الجميع على جوازه امكاناً وعلى تحققه بالفعل أيضاً" (٥٢).

وقد شهد القرآن الكريم نفسه بوقوع هذا القسم. كما في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) (٥٣). حيث لم يعمل بها سوى الإمام علي (عليه السلام) - كما روى أصحاب الحديث في قضية معروفة - فنسخت بآية أخرى بعدها (أأشفتكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون) (٥٤).

وفي هذا القسم تبقى الآية ثابتة في القرآن، لكن حكمها أو مفادها ينسخ ولا يستمر.

والقسم الثالث من النسخ - وربما يعم الحديث غيره عند من لا يخصّص النسخ بهذا القسم - أربع صور:

- ١ - أن ينسخ مفاد آية بمفاد آية أخرى لاحقة في نزولها، بحيث تكون الآية الثانية ناظرة للأولى، كآية الصدقة عند مناجاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذه الصورة لاشك في وقوعها، كما شهد به القرآن الكريم نفسه.
- ٢ - أن ينسخ مفاد آية بمفاد آية أخرى لاحقة، من دون أن تكون الآية اللاحقة ناظرة للسابقة، بل من خلال المنافاة بينهما يحكم بالنسخ، وقد اختلف العلماء في هذا القسم، ويبدو من السيد الخوئي (قدس سره) انكاره، لأنه لا دليل على كون الآية اللاحقة ناسخة للآية السابقة، فربما يكون فهم التنافي بينهما نتيجة عدم التدبر في معنى الآيتين.
- ٣ - أن ينسخ مفاد الآية بسنة قطعية لاشك فيها، ومثلوا له بقوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم) (٥٥).
- فإنها بظاهرها لا تتنافى مع آية العدة والمواريث إلا أن السنة المتضاربة وإجماع المسلمين أثبتنا نسخها بآيات العدة والمواريث. وقد أنكر بعض العلماء المعاصرين هذا القسم من النسخ (٥٦).
- ٤ - نسخ السنة بالقرآن ومثلوا له بقوله تعالى: (فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (٥٧).
- الناسخة للحكم السابق بالتوجه إلى بيت المقدس الذي كان ثابتاً بالسنة.
- ومنها: تجويز إتيان النساء في ليالي شهر رمضان، فقد روي أنه كان محرماً على المسلمين بمقتضى السنة ثم نسخ بقوله تعالى: (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم...)

(٥٨).

شبهات حول النسخ

أثيرت عدة شبهات حول النسخ، منها..

١ - انه لو جاز على الله أن ينسخ حكماً لكان امّا لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه أو لغير حكمة، وكلاهما محال، لأنّ لازم الأول نسبة الجهل له ولازم الثاني نسبة العبث إليه تعالى.

الجواب: إنّ النسخ يرجع الى مقام الدلالة على الحكم، بمعنى أنّ الله سبحانه عالم من أول الأمر أن أمد مصلحة الحكم محدودة بفترة معينة، لكن المصلحة لم تسمح بذكر هذا التحديد من أول الأمر فشُرّع الحكم الأول دائماً بظاهر دليله، ولذا قال الأصوليون إنّ النسخ تخصيص أزمني، فالحكم الناسخ يكشف ان تحديد الحكم الأول بهذا الزمان كان مقصوداً لله سبحانه من أول الأمر.

٢ - ان الآية الناسخة منافية للآية المنسوخة فوقع النسخ يناقض مفاد الآية الكريمة: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٥٩).

الجواب: ان الآية الناسخة حيث كانت تكشف عن انتهاء أمد حكم الآية الأولى فلا تكون منافية ومناقضة للأولى، بل هي قرينة على معناها الواقعي وموافقة لها، أو قرينة على أمد وفترة فاعلية الآية الأولى، فلا تكون مناقضة لها.

الجري والانطباق

من الأمور المهمة في القرآن الكريم أنّ مضمونه لا يختص بزمان دون زمان، ولا تختص آياته بأسباب النزول بل تجري باستمرار الزمان وتنطبق على كل الأجيال.

روى العياشي عن عبد الرحيم القصير قال: كنت يوماً من الأيام عند أبي جعفر (عليه السلام) فقال: يا عبد الرحيم قلت: لبيك: قال: قول الله (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أنا المنذر وعلي الهاد ومن الهاد اليوم؟ قال: فسكت طويلاً، ثم رفعت رأسي فقلت: جعلت فداك هي فيكم توارثونها رجل فرجل حتى انتهت إليك، فأنت - جعلت فداك - الهاد. قال: صدقت يا عبد الرحيم، إن القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين.

وقال عبد الرحيم: قال ابو عبد الله (عليه السلام): إن القرآن حيّ لم يموت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا (٦٠).

وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) (٦١)، "هذه نزلت في رحم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تكون في قرابتك ثم قال: فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنه في شيء واحد" (٦٢).

وفي تفسير فرات: "ولو ان الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض ولكل قوم آية يتلوها هم منها من خير أو شر" (٦٣).

وهناك العديد من النصوص الأخرى التي تشير الى ذلك، ولكن لا بد أن نشير الى أن هذه النصوص لا تعني عدم نزول بعض الآيات في شخص أو فئة خاصة، لتمييزهم عن غيرهم ببعض المميزات مثل قوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (٦٤)، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

ويفترض في المفسر والباحث أن يكون دقيقاً في فهم الآيات والنصوص المفسرة لها، فيميّز بين المعنى المقصود من الآية وبين التطبيقات التي تشير إليها بعض النصوص التفسيرية، فالأول لا يمكن التصرف فيه وتطبيقه على غيره، بينما الثاني مجرد فرد ومصادق - مهما كان بارزاً ومتميزاً - لا تقتصر عليه الآية المفترضة. والله العالم.

الأسئلة

١ - ما هو الوجه في وصف المحكمات بأنها أم الكتاب؟

٢ - ما معنى المحكم والمتشابه في قوله تعالى: (منه آيات محكمات هنّ ام الكتاب وأخر متشابهات) (٦٥)؟

٣ - ما هي أقسام النسخ المدعى في القرآن الكريم، وما هو القسم الذي التزمه شيعة آل البيت (عليهم السلام)؟

٤ - اذكر الصور الأربعة للقسم الثالث من النسخ.

٥ - اذكر شبهة حول النسخ والجواب عنها.

"الدرس السادس عشر"

الوحي

الوحي من الأمور التي دار حولها الجدل بين الباحثين، والبحث فيه متعدد الجوانب فيبحث مرةً في حقيقة الوحي وواقعه، وأخرى في أصل وجوده والأدلة على ذلك. وثالثة في أقسامه... الى غير ذلك..

وسوف نتناول الموضوع ضمن نقاط:

١ - الوحي في اللغة

اختلف علماء اللغة بين من اعتبر فيه الخفاء والسرعة، ومنهم من اعتبر واحداً منهما فحسب.

قال الراغب: (أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة، قيل: أمر وحيّ أي سريع، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة) (٦٦).

وقال أبو اسحاق: (أصل الوحي في اللغة كلها، إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحيًا) (٦٧).

٢ - الوحي في القرآن

عند مراجعة القرآن الكريم نلاحظ أنّ الوحي قد استخدم في موارد عديدة، منها..

١ - إيجاد الداعي في نفس الموحى إليه من دون أن ينتبه الشخص لمصدر الوحي، سواء كان من الله تعالى مثل قوله عزّ وجلّ: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) (٦٨). أم من الشياطين كما في قوله تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) (٦٩).

٢ - الإلهام الغريزي، فيكون أثره فعل ما تمليه الغريزة قال تعالى: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) (٧٠).

ويمكن إدراج هذين المعنيين تحت عنوان واحد هو الشعور الباطني، والفرق الوحيد بينهما أنّ الشعور الثاني من مقتضيات الفطرة الغريزية التي خلقت عليها الشخص بخلاف الشعور في المورد الأول.

٣ - الخلق، قاله بعضهم في تفسير قوله تعالى: (فقضاهنّ سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها) (٧١).

بينما فسّره بعضهم بالوحي إلى أهل السماء أي الملائكة.

٤ - الإسرار، حكى في لسان العرب عن الأنباري في تفسير قوله تعالى: (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً). "معناه يُسرّ بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف ثم قُصِر الوحي للإلهام" (٧٢).

٥ - الإيماء، وقد فسّرت به الآية الكريمة المتحدّثة عن زكريّا (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشياً) (٧٣). حيث أنّ زكريّا (عليه السلام) لم ينطق ولم يتحدّث معهم، بل أشار إليهم وأومأ إليهم فعرّفوا ما يريد.

٦ - الإلهام مع شعور الشخص الملهّم بذلك سواء كان مصدر الإلهام هو الله تعالى، كما يلهم سبحانه رسله مباشرةً بتعاليمه وإرشاداته وأحكامه أحياناً، قال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً) (٧٤)، أم

غيره مثل جبرئيل كما في قوله تعالى: (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليّ حكيم) فإنّ مصدر الوحي في قوله (فيوحي) هو الرسول مثل ما يوحي جبرئيل للنبي.

ويمكن أن يندرج تحت هذا النحو من الوحي كل الموارد التي استخدم فيها الوحي منسوبا للقرآن الكريم مثل (نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) (٧٥) فقد كان وحي القرآن عن طريق جبرئيل (عليه السلام) كما تدلّ عليه الآية الكريمة (نزل به الرّوح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) (٧٦). حيث فسّر الرّوح الأمين بجبرئيل (عليه السلام). والله العالم.

٧ - مطلق التبليغ من الله تعالى للأنبياء ونحوهم الشامل للوحي بكل الأنحاء المختلفة، وذلك كما في الآيات التي تتحدّث عن الوحي للرّسل بشكل مطلق، مثل قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) (٧٧).

حيث لا تتحدّث الآية الكريمة عن أسلوب معيّن من الوحي بل الوحي فيها بمعنى عام ينطبق عليها كلّها.

(١) سورة النساء: ٨٢.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٤) سورة النمل: ٧٦.

(٥) صحيح الترمذي: ٦٦٣/٥. والصواعق المحرقة: ١٤٧ و ٢٢٦. وأسد الغابة: ١٢/٢. وتفسير ابن الأثير: ١١٣/٤. وغيرها.

(٦) الخطبة: ١٩٦.

(٧) وسائل الشيعة: ١ / ٣٢٧.

(٨) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٢٩، باب: ١٣ من أبواب صفات القاضي.

(٩) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٣٧، باب: ١٣ من أبواب صفات القاضي.

(١٠) المقدمة، ج: ٤ / ٧٩٢، طبع بيروت ١٩٥٦.

(١١) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: ٣ / ١٨٤، وأخرجه الذهبي واعترف كلاهما بصحته على شرط الشيخين.

(١٢) يراجع وسائل الشيعة: ١٨، باب ١٣ من أبواب صفات القاضي ١٢٩.

(١٣) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٥.

(١٤) في مقدمة الحديث بأن الله بعث محمداً... فجعله - يعني القرآن - النبي علماً باقياً في أوصيائه فتركهم الناس.

(١٥) سورة آل عمران: ٧.

(١٦) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٧.

(١٧) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٣.

(١٨) سورة هود: ١.

(١٩) سورة الزمر: ٢٣.

(٢٠) سورة محمد: ٢٠.

(٢١) سورة آل عمران: ٧.

(٢٢) التبيان: ٥ / ٤٤٦.

(٢٣) الميزان: ٣ / ٢٠.

(٢٤) سورة ابراهيم: ٢٤ - ٢٦.

(٢٥) التبيان: ٩ / ٢١.

(٢٦) الميزان: ٣ / ٢١.

(٢٧) يراجع مجمع البيان: ٢ / ٧٠١.

(٢٨) يراجع مناهل العرفان: ٢ / ٢٩١.

(٢٩) راجع الميزان: ٣ / ٢٠.

(٣٠) تفسير الرازي: ٧ / ١٧٣.

(٣١) الدر المنثور: ٢ / ٨.

(٣٢) تفسير العياشي: ١ / ١٦٢.

(٣٣) عيون أخبار الرضا: ١ / ٢٩٠.

(٣٤) سورة العنكبوت: ١ - ٢.

(٣٥) مجمع البحرين: ٢ / ٣٠٢.

(٣٦) سورة الحج: ٥٢.

(٣٧) معجم مقاييس اللغة: ٥ / ٤٢٥.

(٣٨) البيان في تفسير القرآن: ٢٩٦.

(٣٩) تلخيص التمهيد: ١ / ٤١٤. ولمزيد من الإطلاع حول البداء يراجع البيان في تفسير القرآن من صفحة ٤٠٧.

(٤٠) سورة البقرة: ١٠٦.

(٤١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٠ / ٢٩. وقد حكى عن السرخسي ان الشافعي صحح الحديث المذكور. وقد حاول النووي توجيهه بأن بعض الناس كانوا يقرؤونها جهلاً بالنسخ.

(٤٢) ما أدري كم كان حجم التهم على شيعة آل البيت (عليهم السلام)، لو كانت أمثال هذه الرواية في مصادرهم حتى إذا لم تكن ذات قيمة علمية!

(٤٣) يراجع اصول السرخسي: ٢ / ٧٨. والفقهاء على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

(٤٤) الجامع الصحيح: ٤ / ٢٥٨. وكذا أبو داود في الحدود: ٣ / ١٤٥، وابن ماجه في الحدود: ٣ / ٢٣٢، ومالك في الحدود: ٥٤٨، وأحمد بن حنبل في مسنده: ٥ / ١٨٣.

(٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي: ٧ / ١٤٠.

(٤٦) سنن الترمذي باب المناقب: ٥ / ٦٦٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقد روي من غير هذا الوجه.

(٤٧) الجامع الصحيح: ٤ / ٢٥٨. وصحيح مسلم: ٤ / ١٦٧، و ٥ / ١١٦.

(٤٨) يراجع أصول السرخسي: ٢ / ٧٨، والفقهاء على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

(٤٩) الإتيان: ٣ / ٧٢.

(٥٠) راجع المحلى: ١١ / ٢٣٤.

(٥١) أوائل المقالات، الطبعة الثانية: ١٤٠.

(٥٢) تلخيص التمهيد: ٤٢٩ / ٢.

(٥٣) سورة المجادلة: ١٢.

(٥٤) سورة المجادلة: ١٣.

(٥٥) سورة البقرة: ٢٤٠.

(٥٦) يراجع تلخيص التمهيد: ٤٤٦ / ١.

(٥٧) سورة البقرة: ١٤٤.

(٥٨) سورة البقرة: ١٨٧.

(٥٩) سورة النساء: ٨٢.

(٦٠) تفسير العياشي: ٢ / ٢١٨ - ٢١٩.

(٦١) سورة الرعد: ٢١.

(٦٢) الكافي: ١٥٦ / ٢.

(٦٣) يراجع البيان: ٣١.

(٦٤) سورة الأحزاب: ٢١.

(٦٥) سورة آل عمران: ٧.

(٦٦) المفردات: ٥١٥. وقد ذكر بعض اللغويين معاني اخرى للوحي لا يهمننا البحث فيها.

(٦٧) لسان العرب: ١٥ / ٣٨١.

(٦٨) سورة القصص: ٧.

(٦٩) سورة الأنعام: ١٢١.

(٧٠) سورة النحل: ٦٨.

(٧١) سورة فصلت: ١٢.

(٧٢) لسان العرب: ٥ / ٣٨٠، مادة وحي.

(٧٣) سورة مريم: ١١.

(٧٤) سورة الثورى: ٥١.

(٧٥) سورة يوسف: ٣.

(٧٦) سورة الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤.

(٧٧) سورة النحل: ٤٣.

"الدرس السابع عشر"

٣ - دور الوحي في مصير الإنسان

تتضح مدى أهمية الوحي ودوره في حياة ومصير الإنسان بملاحظة نقطتين:

النقطة الأولى: الإنسان اجتماعي بطبيعته

من الواضح أنّ الإنسان اجتماعي لا يروم بل لا يمكنه العيش وحيداً من دون انضمام للمجتمع.

هنا يطرح تساؤل عن منشأ كون الإنسان اجتماعياً؟ يرى بعض الباحثين أنّ الدافع الاجتماعي لدى الإنسان ليس فطرياً بل فرضته عليه الضرورة والمصلحة الذاتية، ويفسّر هؤلاء تكوّن المجتمعات بأنّ الإنسان يفكر في مصالحه الذاتية ويحاول استثمار كلّ شيء في سبيل تحقيق رغباته ومصالحه، وعندما أدرك أنّه لا يمكنه بمفرده توفير ذلك لنفسه وأنّ تحقيق بعض هذه الرغبات والمصالح بل كثير منها مرهون بجهود الآخرين التي لا يمكن ضمانها إلا بالتعاون والتعايش معهم اضطرّ الى التعايش ولذلك تكوّنت المجتمعات.

ويستشهد أصحاب هذا الرأي على ذلك بأنّ الإنسان حيث كان همّه هو تحقيق رغباته لذلك فهو لا يتوانى عن الاعتداء على الآخرين وتسخيرهم والتجاوز على حقوقهم في سبيل ذلك، وأنّه لا يحفظ حقوق الآخرين إلا عندما يعجز عن حفظ حقوقه ومصالحه من دون ذلك (١).

لكن الملاحظة التي نسجلها على هذه النظرية أنّ شعور الإنسان بالرغبة بل ضرورة الانخراط في المجتمع شعور فطري غريزي وليس بدافع المصلحة الذاتية، رغم إقرارنا بقضية اهتمام الإنسان وحرصه على مصالحة الشخصية.

وخير شاهد على ذلك ما نجده من الأمراض والمشاكل النفسية التي تواجه أبناء المجتمعات الغربية رغم الرخاء المادي الذي يعيشونه وتوفّر مستلزمات الحياة المترفة للأفراد، كل ذلك بسبب تفكك البنية الاجتماعية وفتور العلاقات والروابط الأسرية والاجتماعية بينهم، فكيف سيكون الحال لو افترضنا انهيار المجتمع بكامله؟!!

ونلاحظ كذلك ان من أفسى الضغوط التي تمارسها السلطات ضد المعتقلين هو عزلهم في سجون انفرادية لكي لا تلبى هذه الحاجة الفطرية لديهم.

إذن فالعيش ضمن المجتمع من أهمّ حاجات الإنسان ومتطلباته التي فُطر عليها.

النقطة الثانية: تنوّع الآراء والحاجة الى القانون

بعد أن يتعايش البشر ضمن المجتمع ويشعرون بارتباط مصالحهم ببعضهم وتشابكها وضرورة تماسك مجتمعهم الذي يعيشون فيه تبرز مشكلتان:

الأولى: تنوع الآراء المطروحة لحفظ الكيان الاجتماعي والمحافظة على حقوق أبناء المجتمع.

الثانية: ظهور بعض العناصر المنحرفة التي لا تكتفي بحقها وتحاول سلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، واختلاق امتيازات غير مبررة لأنفسها.

هاتان المشكلتان تحثان إيجاد مرجعية تشرف على إدارة المجتمع وتشريع قوانين تحافظ على تماسك المجتمع وتحفظ حقوق الأفراد فيه ولو نسبياً وبأعلى نسبة ممكنة. وهذه هي الدولة - بمفاصلها واجهزتها المختلفة - في العصر الحديث.

ولكن يطرح السؤال عن المصدر الذي تعتمد الدولة في تشريعاتها وخطواتها؟

قد نجد من يجيب على ذلك بأن العقل البشري يصلح أساساً ومرجعاً لتمييز الخير من الشر، والنافع من غير النافع، فهو المَعِين الذي يوجّه الدولة في قراراتها المختلفة. بل يهدي المجتمع الى اختيار طبيعة النظام الأفضل الذي يناسبه.

لكن نلاحظ في هذا الجواب ثغرتين:

الأولى: ان من الخطأ أن ننظر الى الإنسان نظرة تجزيئية، بل لابد من شمولية النظر إليه، فنلاحظه بكل قواه وشخصيته وكل المؤثرات في سلوكه، ومن الواضح انّ الانسان لا ينحصر تأثيره بالعقل، ولا يقتصر في سلوكه على ما يرسمه له عقله. بل هناك الهوى والرغبات والغرائز النفسية المختلفة التي تؤثر في سلوكه ويختلف الأفراد في مدى التأثير بكلّ منها شدة وضعفاً، بحيث نجد العقل يضعف أمامها في كثير بل في أكثر الأحيان. فتنهار الحدود التي رسمها العقل وضوابطه التي حدّدت فاعلية كل منها.

يكفينا أن نلقي نظرة على المجتمعات الغربية فبرغم توفر كل الوسائل الكفيلة بسعادتهم إلا انّ فاعلية قوى الشر والرذيلة أدت الى سلبهم هذه السعادة، وزجّهم في متاهات لا نهاية لها، حيث ضعفت عندهم المثل الروحية وتبددت الأسرة وتفكك المجتمع وانتشرت الفحشاء والمخدرات والجرائم المتنوعة، وفقدت الحياة طعمها وحيويتها، فصارت عبئاً على كثير منهم فعمّهم اليأس والاحباط ولجأوا الى الخمر والمخدرات وحتى الانتحار للتخلص منها، رغم التطور التكنولوجي والجوانب المشرقة الأخرى بالإضافة الى توفر الوسائل المادية لديهم الكفيلة بحياة الرخاء والهناء.

الثانية: أنه لو كانت مساحة الحياة محصورة في هذه الدنيا فلربما أمكن ادعاء الرجوع للعقل، ولو باعتباره المرجعية الممكنة في هذه الحياة، إلا أنه حيث كنا نستقبل حياة أخرى بمعايير وقوانين تختلف عما في هذه الحياة، وبما أن الإنسان في هذه الحياة بعيد تماماً عن طبيعة ومتطلبات السعادة في ذلك العالم، ولا يعرف بالضبط ما ينفعه هناك وما لا ينفعه أو يضره فمن الطبيعي أن يتجه الإنسان لربه ليمنّ عليه برسم الخطوط العريضة له، ومنحه الآلية التي تساعد في بلوغ السعادة والمقام الرفيع في الآخرة، وذلك من خلال الوحي إلى الأنبياء ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وليوقظوا الناس في هذه الحياة، لأنّ "الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا" كما جاء في الحديث. قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (٢).

إذن للوحي دور حاسم في مصير الإنسان وتحديد ورسم الخطوط العريضة - على الأقل - في مسير حياته.

وقد تنبّه إلى أهمية الوحي - ولو ضمن تصوره - الفيلسوف الفرنسي المعروف جان جاك روسو، فقال: "... لاكتشاف أفضل أنواع قواعد المجتمع التي تتلاءم مع طبيعة الأمم، لا بدّ من توقّر عقل ممتاز يرى جميع أهواء الناس ولا يعاني من أي هوى، ولا تكون له أيّة علاقة مع طبيعتنا، لكنّه يدركها حتى أعماقها وتكون سعادته مستقلة عتاً، ومع ذلك يريد الاهتمام بسعادتنا، وأخيراً كيف يستطيع هذا العقل - وهو يراعي مجداً بعيداً لنفسه في تقدّم العصور - العمل في قرن ليحصد ثماره في قرن آخر.

وبعبارة أخرى لا بدّ من آلهة، لتمنح القوانين للبشر... ولكن لا يحقّ لكلّ إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم، ولا أن يكون مصدّقاً عندما ينبيء الناس أنّه ترجمانها فإنّ روح المشرّع العظيمة هي المعجزة التي يجب أن تثبت رسالته... إنّ الشريعة اليهودية ما زالت باقية، وشريعة ابن إسماعيل "محمد" التي تحكم العالم منذ عشرة قرون ما برحت تنبئ حتى اليوم بعظمة الرجال الذين أملوها، وبينما لا ترى فيهم كبرياء الفلاسفة أو روح التحيز العمياء سوى دجالين حسني الحظ، فإنّ السياسة الحقيقية تُعجّب في مؤسساتهم بتلك العبقرية العظيمة والقوية التي تُشرف على منشآتهم الدائمة" (٣).

٤ - كيفية وحي القرآن

بعد ملاحظة المعاني السابقة للوحي والطرق المختلفة للإيحاء يبدو من بعض آيات القرآن والنصوص والأحداث التاريخية أنّ القرآن الكريم أنزل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن طريق أحد الملائكة المقربين وانه جبرئيل (عليه السلام)، قال تعالى: (قل من كان عدواً لجبرئيل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله) (٤). (وإنّه لتنزيل ربّ العالمين * نزل به الرّوح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) (٥). وقال عزّ من قال: (قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليتّبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) (٦).

وقد نصت بعض التفاسير على أنّ المقصود من روح القدس هو جبرئيل (عليه السلام).

لكن مجموعة من الباحثين (٧) يرون أنّ بعض القرآن قد أوحى الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بشكل مباشر من دون توسط جبرئيل، ويستشهدون ببعض النصوص المروية، إلا أنّ الملاحظ - بالإضافة إلى ضعف سند أكثرها - أنّها ليست صريحة في وحي القرآن. فلا تصلح دليلاً واضحاً في مقابل هذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها، والله العالم.

"الدرس الثامن عشر"

٥ - تحديد المنزل بالوحي

من الواضح أنّ الذي أنزل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القرآن الكريم بلفظه ومعناه، ويفترض أن لا يكون هناك ريب أو تردد في ذلك، ويكفي شاهداً على ذلك مجموعة من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: (تلك آيات الله نتلوها عليك) (٨)، وقوله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه).

ولكن نسب إلى الأحناف رأي غريب، وهو أن القرآن الكريم اسم للمعنى فقط وليس اسماً للنظم والمعنى معاً (٩). ويبدو أنهم اختلفوا على قولين:

أولهما: ان جبريل انما نزل بالمعاني خاصة، وانّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب.

وثانيهما: أنّ جبريل ألقى إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المعنى، وانه (صلى الله عليه وآله وسلم) عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وانّ أهل السماء يقرؤونه بالعربية، ثم نزل به جبرئيل كذلك بعد ذلك (١٠).

ولكنّ تفاهة هذا الرأي وما تفرّع عليه تغني عن مناقشته. كيف! وقد قال تعالى - مخاطباً نبيّه - (لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) (١١). حيث يدل على أن آيات القرآن بألفاظ محدّدة مقروءة.

وقد قيل ان أبا حنيفة رجع عمّا أوجب ذلك "وان القرآن الكريم عند الحنفية عموماً وأبي حنيفة خصوصاً اسم للنظم والمعنى جميعاً كما هو الشأن عند الأمة كلها" (١٢).

٦ - شبهات حول الوحي

تعرّض الوحي - لكونه من الظواهر غير المألوفة للإنسان - إلى مجموعة من الشبهات والتساؤلات. وفي عصر النهضة المادية فى اوروبا واجه الباحثون الغربيون قضية الوحي بنظرة الريب بل الإنكار، ومن خلاله طعنوا في الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ورسالة الإسلام.

وهذا الموقف منهم لا ينطلق من موقف سلبي خاص تجاه الوحي، بل يرتبط بنظرتهم العامّة لما وراء الطبيعة حيث إنّ أكثرهم حصروا الوجود بعالم المادّة، فمن الطبيعي أن يتنكروا لما وراءه، وهم على ثلاثة أصناف:

الصف الأول: المتطرفون الذين يتّهمون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بالافتراء بهدف تحقيق مكاسب ومصالح دنيوية، مثل السلطة والشهرة.

الصف الثاني: المعتدلون الذين يرون النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عبقرياً ذا شخصية نزيهة وطموحة، رام إنقاذ قومه من حالة الانحطاط والتخلف التي كانوا غارقين فيها، من خلال أفكاره السامية التي كان يحملها، ونتيجة لإدراكه تخلف قومه وعدم تفاعلهم مع أفكاره الإصلاحية قرّر الإيحاء لهم أنّه مرتبط بالله تعالى وأنّه مرسل من قبله بهذه الأفكار والمشاريع الإصلاحية حتى يكونوا أكثر استعداداً لتقبّل هذه الأفكار والدّفاع عنها.

والبعض من هؤلاء الغربيين يتعاملون مع كل الأنبياء على أساس هذه الفكرة، ولا يخصّون نبيّ الإسلام بذلك.

والحقيقة أنّ هذه الأفكار والشبهات ليست مستحدثة وإنما اقترنت ببداية بعثة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوته، فقد واجهه قومه بهذه التهم الباطلة ورفضوا ارتباطه بالله تعالى، ولذلك نجد القرآن الكريم يردّ عليهم بتأكيد هذا الارتباط في مواضع عديدة من زوايا مختلفة وبصيغ متنوّعة، فتارةً يتحدّى الإنس والجن من أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخرى يؤكد على ارتباط الرسول بالوحي وأنّه لا يملك الخيارات، وأخرى يحاججهم بانتظام القرآن وعدم الاختلاف فيه.. وغير ذلك، مثل قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (١٣).

(قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (١٤).

(أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (١٥).

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (١٦).

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين) (١٧).

(وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى) (١٨).

ويمكن مناقشة هؤلاء المنكرين بما يلي:

أ: الوجوه المتقدمة التي تثبت إعجاز القرآن وأنه ليس من إنشاء البشر.

ب: الأدلة والشواهد المثبتة لعالم الروح، وعدم حصر الوجود بالعالم المادي.

ج: استقامة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل البعثة وبعدها وتحمله المشاق والمصاعب في سبيل نشر رسالة الإسلام، حتى أثر عنه قوله: "ما أودى نبيُّ مثل ما أذيت" (١٩)، إضافةً للأدلة الدالة على علمه بالمآسي التي تواجه أهل بيته، مما يكشف أنه لم يكن يقوم بدور مزيف، بل هو مكلف من ربه بتبليغ الرسالة مهما كلف الثمن، كسائر الأنبياء والرسل الذين تحملوا من قومهم ما تحملوا في سبيل أداء رسالتهم.

"الدرس التاسع عشر"

الصفحة الثالثة: الكتاب والباحثون المعترفون بعالم الروح الذين فسروا الوحي تفسيراً يختلف عما تقدم تفسيره، فقد قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحية تنبعث من داخل الوجود، أي الروح الواعية هي التي تعطينا تلك الإلهامات الطيبة الفجائية في ظروف حرجة، وهي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر نفس تلك الروح المتقبعة وراء جسمهم، متجسدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة الله، هبطت عليهم من السماء، وما هي إلا تجلي شخصيتهم الباطنية، فتعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل وتهديهم إلى خير الطرق لهداية أنفسهم وترقية أمتهم، وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله (٢٠)..

ويبدو أنّ الذي دعا هؤلاء - رغم اعترافهم بعالم ما وراء الطبيعة - إلى هذا التفسير للوحي، هو ما وجدوه من مناقضة بعض محتويات الكتب المقدّسة للأديان الأخرى - وبالذات التوراة والإنجيل - لحكم العقل ولمكتشفات العلم الحديث، فبرّروا هذا التناقض بأنّه ناشئ من اختلاط هذه الإيحاءات النفسية على الرسول، بسبب ضعف في شخصيته الروحية، وعدم بلوغه المستوى الرفيع من سمو وشفافية لإدراك كل الواقعيّات على ما هي عليه (٢١).

والجواب على هذا الادعاء:

أولاً: أنّه كيف ينسجم سمو الروحي والعبقريّة المفروضة للأنبياء - التي يعترفون بها - مع هذا الاختلاط الغريب عليهم بحيث لا يميزون بين الإيحاءات النفسية وتلقّي الوحي الإلهي خاصة ما يكون توسط الملك الذي يشاهدونه؟! مع ان الإنسان العادي منزّه عن هذا الاضطراب، خصوصاً مع ملاحظة أنّ الوحي يلزم الأنبياء والرسول منذ بعثتهم إلى وفاتهم، وليس حالة أنية طارئة، فكيف يتصوّر هذا الاختلاط عليهم طيلة هذه الفترة؟!!

ثانياً: أنّنا نلاحظ نمطاً من الآيات لا يعقل استنادها إلى سمو الشخصية الباطنية للأنبياء، مثل آيات العتاب للأنبياء، وكذا بعض آيات الأحكام التعبدية الصرفة التي لا ترتبط بالجانب الروحي، والآيات التي تشير إلى جوانب من الحياة الأخرية، خاصة المرتبطة بجهنّم وعذاب الفاسقين، وغيرها من الآيات التي لا ترتبط مضامينها بالسمو الروحي والشخصية الباطنية للإنسان.

ثالثاً: أنّ هذا التفسير للوحي نشأ من ملاحظة اضطراب كتب العهدين ونحوها ومناقضتها للعقل والعلم، وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم، البعيد عن هذا التناقض والاضطراب.

رابعاً: ان سلوك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يختلف تماماً عن سلوك الذين يفقدون التوازن الفكري بسبب اختلاط الإيحاءات النفسية وعدم استيعابهم لمفردات العلوم الغريبة التي يهتمون بها، فقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) معروفاً بشخصيته المتميّزة و مواقفه الصلبة وقراراته الصائبة في الظروف الحرجة التي واجهته خلال مسيرته الرسالية. وتنزّه عن الشطحات والاضطراب السلوكي الذي ينتاب بعض أصحاب الاتجاهات الروحية، كالصوفية وغيرهم.

وقد اشارت بعض النصوص الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) إلى ذلك، ففي الحديث عن زرارة بن أعين أنّه قال لأبي عبد الله (عليه السلام): كيف لم يخف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يأتيه من قبل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟ فقال (عليه السلام): "إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بنفسه" (٢٢).

وفي نص آخر عن الإمام الصادق (عليه السلام) حيث سئل: كيف علمت الرسلُ أنّها رسل؟ قال: "كُشف عنها الغطاء" (٢٣).

وفي الحديث عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): "إنّ الله وجد قلب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل القلوب وأوعاها فاختره لنبوته" (٢٤).

ملاحظة هامة

يشير هذا النص الأخير إلى دقة الاختيار الالهي لرسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) في تحمّله لمسؤولية أداء رسالة الإسلام، وينطبق أيضاً على اختيار باقي الرسل الالهيين، فهم (صلوات الله عليهم) رغم الفتن والمآسي والاختبارات الصعبة التي واجهوها ورغم اختلاف العصور والظروف التي عاشوها استقاموا جميعاً ولم يضعف أي واحد منهم عن تحمل المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، فكان ذلك تطبيقاً لقوله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٢٥).

"الدرس العشرون"

٧ - شبهات حول وحي القرآن

تضمنت بعض المصادر التاريخية أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن متيقناً من الوحي في بداية أمره، وكان متردداً في ذلك، وأنّ الذي أقنعه زوجته خديجة بدعم من ورقة بن نوفل، فقد روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنّها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثمّ حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتّى جاءه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملكُ فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتّى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضی الله عنها فقال: زمّلوني زمّلوني. فزمّلوه حتّى ذهب عنه الروحُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما

يُخزيك الله أبدأ، إنك لتصلُ الرحم، وتحملُ الكلّ، وتكسبُ المعدوم، وتقريءُ الضيف، وتعينُ على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ص) خيراً ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموسُ الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله (ص) أو مُخرجي هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودى، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن توقى، وفتر الوحي (٢٦).

وفي رواية أنّ أبا بكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه... (٢٧).

لاحظ المضمون غير المعقول لهذه الرواية، إذ كيف يلتبس الأمر على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يشك في نفسه، بحيث تطمئنّه خديجة وتزيل روعه، ثم لا يطمئن هو بنبوّته إلا بالرجوع للنصراني ورقة بن نوفل!

ومما يؤيد الطعن في هذه القصة، أن المؤرخين لم يذكروا أن ورقة قد آمن كما آمن الإمام علي (عليه السلام) وخديجة رغم ما روي من امتداد عمره إلى ما بعد البعثة وأنه مرّ على بلال وهو يُعذب (٢٨)، قال ابن حجر: وهذا.. يدلّ على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الإسلام حتى أسلم بلال (٢٩).

وربما كانت هذه الرواية من الإسرائيليات التي ترمي إلى الحط من مقام الرسول والطعن في رسالته، وتأكيد رجوعه لأهل الكتاب.

بينما أكدت النصوص المتقدمة الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) الوضوح والطمأنينة التي يعيشها الأنبياء عند الإيحاء إليهم نافية ما تضمنته تلك الرواية المزعومة (٣٠).

"الدرس الحادي والعشرون"

ونجد هنا من المناسب أن نتعرّض بإيجاز لبعض الآيات التي قد يوحي ظاهرها اضطراباً في موقف الرسول تجاه الوحي أو الرسالة:

الآية الأولى: قوله تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثببتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) (٣١).

عن ابن عباس في رواية عطاء نزلت هذه الآية في وفد ثقيف، أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألوه شططاً، وقالوا منعنا باللات سنة، حرّم وادينا كما حرّمت مكة شجرها وطيرها ووحشها، فأبى ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يجبهم فكرّروا ذلك الالتماس وقالوا: انا نحبّ أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرّهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا فقل: الله أمرني بذلك، فأمسك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه؟ فأنزل الله هذه الآية (٣٢).

وقال الحسن: الكفار أخذوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة بمكة قبل الهجرة وقالوا: كفّ يا محمد عن ذمّ آلهتنا وشتمها، فلو كان ذلك حقاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحقّ منك، فوقع في قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يكفّ عن شتم آلهتهم.

وعن سعيد بن جبيرة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك تستلم آلهتنا، فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية. فنزلت هذه الآية (٣٣).

وهناك روايات أخرى في سبب النزول.

ولو أغمضنا النظر عن هذه الروايات المختلفة التي لم تثبت صحة واحدة منها بخصوصها. فالذي يلوح من الآية الكريمة أنه كان هناك طلب من الكفار من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على خلاف تعاليم الله سبحانه وتعالى، أمّا ما هو موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالذات؟ وكيف تعامل مع هذا الطلب؟ فهو ما سوف نتحدّث عنه بإيجاز...

وقبل ذلك نقول: إنّ هذه الآية الكريمة - على كل تقدير - لا ترتبط ببحثنا الحالي في الوحي حول مدى وضوح الوحي الإلهي في نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) - خلافاً لمن يتوهم ذلك - لأنّ الآية صريحة في أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) محافظ على وعيه تماماً وأنه يميّز الوحي الإلهي غاية ما هناك أنه كاد يميل باختياره الى الكفار ومداراتهم.

إنّ الآية الكريمة تؤكد وعي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واختياره التام، لذلك رتبت ثبوت العقاب الشديد عليه لو حصل منه الزيغ. وليس فيها أية إشارة الى عدم وضوح الرؤية عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا الى الهلوسة والاضطراب النفسي وأمثال ذلك مما يوجب الشك في الوحي إليه، بل الآية الكريمة - باعتبار آخر - تؤكد صدق انتساب ما

يقوله النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الى الوحي الإلهي، وانه بمجرد احتمال خطور (الزيغ) في نفسه نزل تحذيره والتلويح له بشدة العذاب.

فهذه الآية اجنبية تماماً عن آية سورة النجم واسطورة الغرائق، التي تضمنت الهلوسة أو فقد الوعي والاختيار أمام تسلط الشيطان عليه - على اختلاف صيغ الرواية المزعومة - فلا يصح الاستدلال والاستشهاد بها على ما يرومه أعداء الإسلام.

نعم الآية الكريمة ترتبط بموضوع عصمة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه هل هو معصوم أو لا؟ وهل ما صدر منه وأوجب نزول هذه الآية مناف للعصمة أو لا؟

ونحن نشير هنا الى هذا الموضوع استطراداً فنقول:

أولاً: لاشك أنّ الآية الكريمة نزّهت الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) عن صدور الفرية منه والزيغ، فهي نصّت على أنه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم تصدر منه الفرية ولم يجبههم الى ما أرادوه منه.

نعم من خلال الآية قد يطرح تساؤل عن معنى عصمة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وانه هل العصمة تقتضي عدم صدور الفعل القبيح من المعصوم بقرار مستقل منه دائماً أو لا مانع من تدخّل التسديد الإلهي المباشر أحياناً، ومن ناحية أخرى ما هي طبيعة هذا التسديد الإلهي، هل هو إرادة إلهية مانعة من وقوع ما أراده النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أو ما خطر في باله، أو هو تسديد إلهي فطري للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مانع من التأثير بهذه المؤثرات التي ينهار أمامها غير المعصوم الفاقد للتسديد؟ وقد تصدت البحوث العقائدية للإجابة على هذه التساؤلات وتحديد الموقف الصحيح منها، فنوكل البحث اليها.

وعلى كل تقدير، هذه الآية لا تخدش في مقام الرسول ومكانته عند ربه، التي تسمو به عن الإفتراء عليه كيف! وقد حذر القرآن من ذلك أشدّ التحذير، كما في قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين) (٣٤). فكيف يلتئم هذا التحذير مع فرضية إقدامه على الافتراء؟! وكذلك مع حكمة الله ودقة اختياره لرُسله من بين عباده (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (٣٥).

ثانياً: يُفهم من الآية الكريمة نفسها أن استقامة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كانت باختياره وقراره الشخصي ولم يكن مجبراً عليها، وإلا لم يكن لتحذيره(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى: (إذاً لأذقنك ضعف الحياة و ضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) (٣٦) معنى ومدلول، فما معنى أن يحذر الله نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) من الافتراء والتقول ونحو ذلك ثم لمّا يعزم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) على ذلك يمنعه الله سبحانه من ارتكابه؟!!

ثالثاً: ان نسبة التثبيت لله سبحانه لا تعني فقدان اختياره (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك، شأن كثير من الآيات التي تنسب أفعال الإنسان لله سبحانه مثل قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٣٧) فهو لا يعني ان الرمي لم يكن فعلاً اختيارياً للرامي، وكذلك الآيات التي تتحدث عن الهدى والضلال مثل قوله تعالى: (فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء) (٣٨) فإنها لا تعني قسرهم على الضلال والهدى، لأن الإرادة الالهية في كل ذلك لم تكن هي العلة التامة، ولا سالبة للاختيار.

ومن خلال ما ذكرناه اتضح أن استقامة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت بقراره واختياره من دون أن يكون مجبوراً على ذلك، ولعلّ هذا التحذير مجرد تذكير للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان يرغب في صيغة تخفّف من شدّة عنادهم، لما عرف عنه من الرأفة والرحمة وحرصه الشديد على إيمانهم، كما أشار إليه القرآن الكريم في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (٣٩)، (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) (٤٠)، (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) (٤١).

ولا يعني هذا ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد عزم على التلاعب بالوحي وتغييره. ولعلّ المقصود الحقيقي بالتحذير المذكور غير النبي، لبيان مدى خطورة الافتراء على الله تعالى.

"الدرس الثاني والعشرون"

الآية الثانية: قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وانّ الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أتوا العلم أنّه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وانّ الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) (٤٢).

قال الزمخشري: والسبب في نزول هذه الآية ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما عرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينقروهم، لعلّه يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم واستنزاهم عن غيهم وعنادهم، فاستمرّ به ما تمنّاه حتى نزلت عليه سورة النجم وهو في نادي قومه، وذلك التمني في نفسه، فأخذ يقرؤها فلما بلغ قوله (ومناة الثالثة الأخرى) (٤٣) ألقى الشيطان في أمنيته التي تمنّاها، أي: وسوس إليه بما شيعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط الى أن قال (تلك الغرائيق العلى وانّ شفاعتهن لترتجى)... إلخ (٤٤).

وقد روى هذه القصة الطبري والبزار والطبراني وابن مردويه وغيرهم.

ولكن علماء الشيعة ومجموعة أخرى من علماء الجمهور رفضوا ذلك... قال الفخر الرازي في تفسيره بعد أن أشار إلى هذه الروايات: "هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول... إلخ" (٤٥).

ونحن عندما ندرس هذه الآيات الكريمة دراسة موضوعية متأنية نجد مدلولها أجنياً عن آيات سورة النجم وقضية الغرانيق المزعومة، وذلك أن أسطورة الغرانيق رويت بصيغتين مختلفتين في المضمون..

فمدلول الصيغة الأولى: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تعمّد تغيير الوحي والافتراء بهدف التقرب للمشركين واستمالتهم.

وهو - كما تراه - خلاف ظهور الآيات الكريمة، وقد أوضحنا بطلانه.

ومدلول الصيغة الثانية: إن الشيطان خدعه أو تحدّث على لسانه.

وقد يتوهم انسجام ذلك مع ظهور الآيات الكريمة، ولكن هذا غير صحيح بعد ملاحظة ما يلي:

أولاً: إننا لا نجد الشيطان مسلطاً على الإنسان العادي من الناس حتى غير المؤمن بحيث يؤثر على حواسه، فكيف يفترض سيطرته على الأنبياء والرسل، مع أنهم من الناحية التكوينية العضوية كباقي الناس؟

ثانياً: إن الآية تفرض الحالة دائمية تلاحق الأنبياء والمرسلين وإنها ليست نادرة، لذلك استخدمت صيغة الحصر، وليس من المعقول فرض هذه السيطرة الدائمة للشيطان على الأنبياء والرسل. مع ملاحظة مسؤولياتهم الخطيرة ورعاية الله وتسديده لهم.

ثالثاً: إن التمني قد يُراد منه أحد معان.

أ: طلب المستحيل أو شبهه.

ب: التلاوة كما ورد فيه قول الشاعر:

تمنى كتاب الله آخر ليله *** تمنى داوود الزبور على رسل

أي تلا كتاب الله مترسلاً فيه كما تلا داوود الزبور مترسلاً فيه (٤٦).

ج: إرادة الشيء أو تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه (٤٧).

أمّا المعنى الأول فهو غير معقول هنا، لذلك لم يذكره أحد. وأمّا المعنى الثاني فهو لا ينسجم مع الآية الكريمة (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمئى..) (٤٨) إذ من المعلوم ندرة الأنبياء والرسل أصحاب الكتب التي يقرؤونها، بينما الآية تتحدث عنهم كلهم أو نسبة كبيرة منهم على الأقل. ويقوى الإشكال بالنسبة للأنبياء - غير الرسل - بناءً على الرأي القائل: إنّ النبي غير الرسول.

فلا يبقى إلا المعنى الثالث فيكون معنى الآية - والله العالم - أنّ الأنبياء والرسل حيث يرغبون ويحرصون على هداية الناس فيضع الشيطان العراقل والمعوقات أمام مساعيهم الاصلاحية، ونتيجة لهذا الصراع بين الخير والشر، يفتتن كثير من الناس، ويزداد المؤمنون إيماناً، كما تحدثت بذلك آيات أخرى (يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقين) (٤٩).

رابعاً: إنّ هذا كله يبتني على فرضية صحة اسطورة الغرائيق إذ لا يحتمل أنّ هناك قضية أخرى أوجبت نزول هذه الآيات، بل الذين يذهبون الى هذا التفسير - المرفوض عندنا - يعتبرونها مشيرة الى قضية الغرائيق، ونحن قد أثبتنا فيما سبق ومن خلال عدة شواهد عدم صحة قضية الغرائيق وعدم انسجامها مع مدلول الآيات المتقدمة. وأنها اسطورة حاكتها أصابع الظالمين (٥٠).

هذا، ونلاحظ أنّ مجموعة من علماء الجمهور رفضوا هذه الروايات، قال الرازي في معرض ردّه على هذه الروايات بالسنة: وأمّا السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنّه سئل عن هذه القصة؟ فقال: هذا وضع من الزنادقة، وصنّف فيه كتاباً. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم أنّ الرواة مطعون فيهم (٥١).

الأسئلة

١ - اذكر خمسة معان للوحي.

٢ - كيف تردّد الاستشهاد بالآية الكريمة (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) على صحة اسطورة الغرانيق؟

٣ - كيف تردّد الاستشهاد بآية التمني على صحة اسطورة الغرانيق؟

٤ - كيف تناقش الرأي القائل ان ادعاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الارتباط بالله بهدف تهيئة ارضية لدى قومه لقبول افكاره الاصلاحية؟

٥ - هل ان سعي الإنسان للانخراط في المجتمع لمجرد توفير مصالحه الذاتية؟

٦ - ما هو سبب احتياج الإنسان للوحي الإلهي؟

"الدرس الثالث والعشرون"

القرآن والعلم

١ - موقف القرآن من العلم.

دعا القرآن في كثير من الآيات الى التزود بالعلم وأثنى على العلماء وذمّ الجهل والجاهلين، وهذا لاشك فيه لمن يلقي نظرة - ولو سطحية - على الآيات القرآنية.

لكن يبقى هناك تساؤل عن طبيعة العلم أو العلوم التي دعا إليها القرآن ومدح أصحابها وأثنى عليهم، فهل حث القرآن على كل العلوم، المادية وغيرها أو كان نظر القرآن الى خصوص بعض العلوم دون البعض الآخر؟

فبينما نجد بعض المفسرين والباحثين يحاولون اثبات دعوة القرآن إلى تعلم كل العلوم النافعة، نرى آخرين يصرون على أن نظر القرآن الى خصوص العلوم الإنسانية وما يرتبط بسعادة الإنسان في الدار الآخرة، مثل العقائد والفقه والتربية ونحوها...

ولأجل أن يتضح الموقف القرآني من العلوم نقول: انّ ملاحظة الآيات التي تتحدث عن العلم والجهل وما يحكي عنهما من المفردات تشهد أنّها تصب في اتجاه استقامة الانسان وهدايته ووعيه لطبيعة الحياة الدنيا، فهي لا تعدو هذه الأمور و نحوها مما يرتبط ارتباطاً مباشراً بالعلوم والمعارف الدينية والتربوية، دون العلوم المادية ونحوها مما يحتاجها الانسان في حياته اليومية. فمن هذه الآيات قوله تعالى:

(هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (٥٢).

(قال الذين أوتوا العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين) (٥٣).

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل ربّ زدني علماً * ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً) (٥٤).

وغيرها كثير من الآيات.. حيث نلاحظ ان هذه الآيات القرآنية الكريمة بعيدة عن ارادة العلوم المادية وما يشبهها مما هو ضمن اهتمام الإنسان ومرتبطة بجهده واحتياجاته، وأمّا تفسير العلم في هذه الآيات بما يشمل كل العلوم النافعة فهو تفسير متكلف فيه.

نعم يكمن اهتمام القرآن بمختلف العلوم النافعة من خلال ما يلي:

أ: اهتمام القرآن بعزة الإسلام والمسلمين، فتدخل ضمن هذه الزاوية كل العلوم التي تساهم في تقدم المجتمع واستقراره ورخائه الاقتصادي وكل ما يُنأى بالمسلمين عن الذل والدونية في مقابل الأمم الأخرى.

ب: دعوة القرآن لإحياء الأرض، او استثمارها - باعتبارها قد جُعِلت وابتحت للانسان - والذي قد يفهم منه الكناية عن الحث على استكشاف أسرار وخزائن هذا الكون الذي يتوقف على نمو العلوم المادية وتطورها. (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها) (٥٥).

ج: دعوة القرآن المسلمين للدفاع عن انفسهم وعن دينهم والاستعداد التام لمواجهة خطط الأعداء وكيدهم.. فإنه يستبطن الدعوة للتزود بكل العلوم المساهمة في الوصول الى هذه الحالة بكل جوانبها العسكرية والاقتصادية وغيرهما.. (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (٥٦).

٢ - العلوم التي كان القرآن عاملاً في ظهورها.

هذه العلوم على صنفين.

الصنف الأول: هي العلوم التي تضمنها القرآن الكريم سواء تلك التي كان هو مصدرها الأساس أم التي ساهم القرآن الكريم في تطويرها، مثل مباحث التوحيد والنبوة والمعاد والفقهاء والتربية الإسلامية والأخلاق ونحوها.

الصنف الثاني: العلوم التي ساهم القرآن في تطورها واستمرارها من دون أن يتضمنها، مثل علوم النحو والبلاغة واللغة وفقه اللغة، حيث عكف المسلمون على دراسة اللغة العربية وأسرارها وأحكامها ليحافظوا على القرآن الكريم ويفهموا معانيه، فكان للقرآن الفضل في نشوء هذه العلوم وتطورها واهتمام المسلمين بها.

بالإضافة إلى دوره في حفظ اللغة العربية من الذوبان والتهجين.

٣ - العلوم الخاصة بالقرآن والباحثة عنه

وهي مجموعة علوم القرآن التي ندرسها تحت عنوان "علوم القرآن" مثل مباحث علم التفسير، ونزول الآيات، والوحي، واعجاز القرآن، وغيرها من العلوم الباعثة عن القرآن الكريم نفسه، وخصائصه.

٤ - العلوم الضرورية لفهم القرآن الكريم

يحتاج الدارس للقرآن الكريم - بالإضافة لفهم اللغة العربية والإحاطة بها - إلى مجموعة من العلوم التي تساهم في فهم الكتاب العزيز، وهي..

أ) علوم العربية المختلفة، مثل علم اللغة وفقه اللغة، وعلوم النحو والصرف والبلاغة.

ب) العلوم العقلية المختلفة مثل المنطق والعقائد وبعض البحوث الفلسفية وغيرها.

ج) مجموعة علوم القرآن مثل نزول الآيات وتاريخه ليتمكن تفسير آية بأخرى، وتمييز المدني من المكي مثلاً وأسباب النزول وغير ذلك.

د) التزود بالعلوم التي تتحدث عنها بعض الآيات مباشرة مثل الفقه والعقائد وقصص الأنبياء وبعض أحداث التاريخ الإسلامي وغيرها.

هـ) علما الدراية والرجال، لتمييز النصوص التفسيرية الصحيحة عن غيرها، وتقديم المتعارضات ونحو ذلك.

هذا إذا كان هدف المفسر التفسير المحيط والجامع لكل القرآن، أما إذا اقتصر على جوانب معينة منه أو آيات أو سور خاصة منه فقد لا يحتاج الى بعض هذه العلوم المتقدمة. ويختلف ذلك بحسب طبيعة الجانب الذي يتناوله المفسر ومتطلباته.

ونضيف - إلى جانب التزود بالعلوم المتقدمة - شرطين رئيسيين يفترض توفرهما في المفسر للقرآن الكريم وهما:

الأول: أن يعي المفسر تعاليم الإسلام من مصادرها الأصلية ولا يبتعد عن الذهنية الإسلامية الأصيلة، إذ لا يمكن التفكيك بين فهم الإسلام وفهم كتابه. ومن هنا نعرف عاملاً رئيسياً في أخطاء المستشرقين وغيرهم البعيدين عن فهم روح الإسلام الأصيل عند دراستهم وتفسيرهم للقرآن الكريم.

الثاني: أن يكون المفسر مسترشداً بالقرآن الكريم وتابعاً له من دون أن يجعل من نفسه متبوعاً وموجّهاً للنص القرآني، فيجتنب تفسيره على ضوء قناعاته المسبقة وتوجهاته الذاتية البعيدة عن القرآن وباقي المصادر الإسلامية التي يفسر بعضها البعض الآخر، ولذا نلاحظ أخطاء فظيعة وقع فيها أصحاب العقائد والنظريات المنحرفة والباطلة عندما صاروا يحملون القرآن أفكارهم الخاطئة محاولة منهم في تفسير آياته بما ينسجم معها.

(١) يراجع كتاب (قرآن در إسلام): ١٣٢/١٢٨.

(٢) سورة الجمعة: ٢.

- (٣) يراجع كتاب "في العقد الإجتماعي" ص ٨٢ و ٨٥ - ٨٦ تأليف جان جاك روسو، ترجمة ذوقان قرقوط. طبع دار القلم.
- (٤) سورة البقرة: ٩٧.
- (٥) سورة الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.
- (٦) سورة النحل: ١٠٢.
- (٧) يراجع تلخيص التمهيد: ١ / ٢٢. وكذا غيره.
- (٨) سورة آل عمران: ١٠٨.
- (٩) يراجع المذاهب الإسلامية الخمسة / بحث الدكتور محمد وفاريسي: ٢٥٦، مركز الغدير للدراسات الإسلامية.
- (١٠) راجع البرهان للزركشي: ١/٢٢٩، والاتقان للسيوطي: ١/١٠٨ - ١٥٧ ط، مطبعة أمير.
- (١١) سورة القيامة: ١٦ - ١٨.
- (١٢) يراجع كتاب المذاهب الإسلامية الخمسة: ٢٥٨.
- (١٣) سورة البقرة: ٢٣.
- (١٤) سورة الإسراء: ٨٨.
- (١٥) سورة النساء: ٨٢.
- (١٦) سورة يونس: ٣٧.
- (١٧) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٦.

(١٨) سورة النجم: ٣ - ٥.

(١٩) بحار الأنوار: ٣٩ / ٥٦.

(٢٠) تلخيص التمهيد: ١ / ٢٠.

(٢١) يراجع دائرة معارف القرن العشرين: ١٠ / ٧١٥، فيما نقله عن ميرس، في كتابه الشخصية الإنسانية.

(٢٢) العياشي: ١ / ٢٠١، والبحار: ١٨ / ٢٦٢.

(٢٣) البحار: ١١ / ٥٦.

(٢٤) البحار: ١٨ / ٢٠٦.

(٢٥) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٢٦) الجامع الصحيح: ١ / ص ١٤ - ١٥.

(٢٧) الاتقان: ١ / ٢٤.

(٢٨) الإصابة: ٦ / ٤٧٦.

(٢٩) المصدر.

(٣٠) تراجع النصوص في ص ٨٤.

(٣١) سورة الإسراء: ٧٣ - ٧٥.

(٣٢) التفسير الكبير: ٢١ / ٢٠.

(٣٣) يراجع التفسير الكبير: ٢١ / ٢٠.

(٣٤) سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٦.

(٣٥) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٣٦) سورة الإسراء: ٧٥.

(٣٧) سورة الأنفال: ١٧.

(٣٨) سورة إبراهيم: ٤.

(٣٩) سورة فاطر: ٨.

(٤٠) سورة الكهف: ٦.

(٤١) سورة الشعراء: ٣.

(٤٢) سورة الحج: ٥٢ - ٥٤.

(٤٣) سورة النجم: ٢٠.

(٤٤) الكشاف: ٣ / ١٦٤.

(٤٥) التفسير الكبير: ٢٣ / ٥٠.

(٤٦) لسان العرب: ١٥ / ٢٩٤.

(٤٧) يراجع المصدر.

(٤٨) سورة الحج: ٥٢.

(٥٠) ولا غرابة في ذلك ما دام (خليفة المسلمين) يتناول على النبي ٩ ويزداد غيظاً عندما يسمع اسمه ينادى به في الأذان كل يوم خمس مرّات، ويعزم على دفنه والقضاء عليه، كما في المحاوراة المعروفة بين المغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبي سفيان. والخليفة الآخر - الوليد بن يزيد بن عبد الملك - يتناول على كتاب الله عزّوجلّ ويجعله غرضاً ليرميه بالنشّاب وهو يقول:

تهدّدي بجبار عنيد *** فما أذاك جبار عنيد

إذا ما جنّت ربك يوم حشر *** فقل يارب مزقني الوليد

الى غير ذلك من الممارسات والمواقف المخزية، ولا نستغرب من (علماء) يلتزمون هذا الرأي مطوعين لرغبات أولئك (الخلفاء) أو حجبهم الغشاوة عن رؤية الحقيقة.

(٥١) التفسير الكبير: ٢٣ / ٥٠.

(٥٢) سورة الجمعة: ٢.

(٥٣) سورة النحل: ٢٧.

(٥٤) سورة طه: ١١٤ - ١١٥.

(٥٥) سورة الملك: ١٥.

(٥٦) سورة الأنفال: ٦٠.

"الدرس الرابع والعشرون"

نزول القرآن الكريم

لاشك أنّ القرآن الكريم نزل على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك كما دلت عليه عدد من الآيات (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) (١) (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) (٢)، (إنا أنزلناه في ليلة القدر) (٣).

وليلة القدر عند كثير أو الأكثر من علماء الجمهور ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، والمعروف عند الشيعة الإمامية أنّها لا تعدو الحادية والعشرين والثالثة والعشرين من شهر رمضان المبارك. ويرجح كثير منهم أنّها ليلة ثلاث وعشرين منه. حتى قال الصدوق(قدس سره): "اتفق مشايخنا على أنّها ليلة ثلاث وعشرين"(٤).

ولكن يقع هذا التساؤل ما معنى نزول القرآن في ليلة القدر مع أن المعروف والمتواتر بين المسلمين أنّه كان ينزل متدرّجاً طوال عشرين عاماً أو ثلاثة وعشرين عاماً؟

وهناك آراء عديدة لتوجيه ذلك حيث نقتصر هنا على أهمها:

الرأي الأول: إنّ القرآن كان ينزل على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في ليلة القدر من كل عام ما كان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثم ينزله جبرئيل تدريجياً حسب مواقع الحاجة، فعلى هذا الرأي يكون المقصود من ليلة القدر في الآية الكريمة هو النوع وأن نزول القرآن توزع على عدة أفراد منه، لا ليلة قدر خاصة.

ونسب هذا الرأي الى ابن جريح والسدي، واسنده السدي الى ابن عباس، ونقله القرطبي عن مقاتل. ووافقه الحلبي والماوردي وغيرهما(٥).

لكن هذا الرأي - بالإضافة إلى سذاجته ولا ينسجم مع ما هو المعروف من نزول سورة القدر في مكة، حيث كان النازل بعض القرآن فحسب، فلا يناسب ذلك صيغة الفعل الماضي ونسبة نزول كل القرآن في ليلة القدر كما تضمنتها الآيات الكريمة (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، (إنا أنزلناه في ليلة مباركة)، (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) خصوصاً ان كثيراً من الآيات كانت تنزل لمناسبة طارئة طويلة أيام السنة، فلا معنى لفرض سبق نزولها في ليلة القدر.

نعم ورد في بعض النصوص ان القرآن كان يُعرض على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كلّ سنة مرةً، وإنّه عُرض عليه في عام وفاته مرتين. لكنه أجنبي عن هذا الرأي.

عليه وآله وسلم): نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان، وأنزل الانجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشر خلون من شهر رمضان، وأنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان" (١٠).

وروى السيوطي بسنده الى جابر بن عبد الله الانصاري قال: "انزل الله صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وانزل التوراة على موسى لست خلون من رمضان، وانزل الزبور على داوود لاثنتي عشرة خلت من رمضان، وانزل الانجيل على عيسى لثماني عشرة خلت من رمضان، وانزل الفرقان على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لأربع وعشرين خلت من رمضان" (١١).

الرأي الرابع: ان القرآن نزل - بمعناه أو بحقيقته البسيطة الجامعة - دفعة واحدة على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم نزل بألفاظه مفصلاً وتدرجياً عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) ليبلغه الى الأمة. وقد اختار هذا الوجه الفيض الكاشاني والعلامة الطباطبائي - على اختلاف بينهما في توجيهه وخصوصياته - حيث وجه الكاشاني النصوص الآتفة بقوله: "وكأنه اريد بذلك نزول معناه على قلب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كما قال تعالى: (نزل به الروح الأمين * على قلبك) (١٢) ثم نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه الى ظاهر لسانه كلما أتاه جبرائيل(عليه السلام) بالوحي وقرأه عليه بألفاظه" (١٣).

أما العلامة الطباطبائي فقد وجه هذا الرأي بما ينسجم مع رأيه في تفسير الكتاب فقال: "ان الكتاب ذو حقيقة اخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة، لرجوعها الى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول، وانما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طراً عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) (١٤). وقال تعالى: (انه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون) (١٥). وقال: (ولقد جنناهم بكتاب فصلناه على علم) (١٦).

اذن فالمراد بانزال القرآن في ليلة القدر انزال حقيقة الكتاب المتوحد الى قلب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) دفعة، كما انزل القرآن المفصل في فواصل وظروف على قلبه(صلى الله عليه وآله وسلم) ايضاً تدرجاً في مدة الدعوة النبوية(١٧).

"الدرس السادس والعشرون"

الرأي الخامس: ان ابتداء نزوله في شهر رمضان، ونسب لجماعة منهم الشعبي..

قال الشيخ المفيد (ره): "وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر أنه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه الى وفاة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد مما يقتضيه ظاهر القرآن والمتواتر من الأخبار واجماع الأمة على اختلافهم في الآراء"(١٨).

واختار هذا الرأي ابن شهر آشوب في (المناقب) حيث قال: "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن أي ابتداء نزوله"(١٩). وقال في متشابهات القرآن: "والصحيح ان (القرآن) في هذا الموضع لا يفيد العموم، وانما يفيد الجنس، فأى شيء نزل فيه فقد طابق الظاهر"(٢٠).

ووجه الشيخ معرفة بقوله: "لأن كل حادث خطير اذا كانت له مدة وامتداد زمني، فان بدء شروعه هو الذي يسجل تاريخياً، كما اذا سئل عن تاريخ دولة أو مؤسسة أو تشكيل حزبي.. فإنّ الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لا غير، وأيضاً فإنّ قوله تعالى (أنزل فيه القرآن) والآيات الأخر حكاية عن أمر سابق لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكي، وإلا لكان اللفظ بصيغة المضارع او الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنّ من القرآن ما نزل متأخراً عن ليلة القدر، اللهم إلا بضرب من التأويل غير المستند"(٢١).

وهو رأي وجيه، لكنه قد يواجه إشكالاً ملخصه انّ النصوص والأقوال حول توقيت ابتداء الوحي الإلهي على الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) لا تنسجم مع كون ابتداء النزول في ليلة القدر - ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لدى الجمهور، وليلة إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين لدى شيعة أهل البيت(عليهم السلام) - فان الأقوال المعروفة في ابتداء الوحي وبعثة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) هي:

الأول: ان مبعثه (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهر ربيع الأول، ذكره اليعقوبي.

الثاني: انه بعث لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، قاله ابن سعد(٢٢).

الثالث: ان الوحي انزل على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان، حكاه الطبري عن أبي الجلد(٢٣).

الرابع: انه اليوم السابع والعشرون من رجب، وهو المعروف بين شيعة آل البيت(عليهم السلام) ووردت فيه نصوص من الفريقين. منها: ما رواه الكليني بسنده عن الحسن بن راشد عن أبي عبدالله(عليه السلام).. "ولا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فانه هو اليوم الذي نزلت فيه النبوة على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).."(٢٤). ومنها: ما عن البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي قال: "في رجب يوم وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام من الدهر مائة سنة وقام مائة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله تعالى محمداً"(٢٥).

ونلاحظ انّ هذه الأقوال في توقيت بعثة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لا تتسجم بظاهرها مع التزام ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر.

وقد يجاب عن ذلك بإمكانية افتراض فاصل زمني - قيل: إنه ممتد الى ثلاث سنين - بين بداية الوحي والبعثة وبين نزول القرآن الكريم، ويشهد لذلك النصوص الدالة على انه(صلى الله عليه وآله وسلم) بُعث بعمر اربعين عاماً، بضميمة النصوص الواردة في ان القرآن نزل خلال عشرين عاماً(٢٦). وما ورد عن سعيد بن المسيب قال: "انزل - يعني القرآن - على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ابن ثلاث واربعين"(٢٧).

فإذا علمنا ان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) توفي عن ثلاثة وستين عاماً، فيكون عمره عند نزول القرآن ثلاثة واربعين عاماً. ويعني ذلك ان ابتداء نزول القرآن بعد ثلاث سنين من بعثته(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلا مانع من اختلاف زمان البعثة عن ابتداء نزول القرآن عليه. والله العالم.

تدرج نزول القرآن

من الحقائق الثابتة تاريخياً وإسلامياً ان القرآن الكريم قد بُلغ للأمة بشكل متدرّج. وهذا لا شك ولا خلاف فيه، بل اشار إليه القرآن الكريم نفسه في آيات عديدة مثل قوله تعالى: (ورتلناه ترتيلاً) (٢٨).

حيث ان الترتيل هو التدرج، ولذلك عُنون هذا البحث في بعض المصادر بالترتيل في المعنى.

وقبل أن نتحدث عن حكمة النزول التدريجي للقرآن الكريم نشير الى التدرج في الرسالة الإسلامية نفسها، - وتبعاً لذلك - التدرج في مواقف الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في مجالات ثلاثة:

الأول: التدرج في تعاليم الرسالة، سواء ما يرتبط منها بالجانب العقيدي أم الجانب التشريعي أم غيرهما... فأول ما بدأ به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) هو دعوة الناس الى التوحيد. (قولوا لا إله إلا الله فتلحوا) ثم تدرج ببيان اصول العقيدة الإسلامية وأسسها، ثم الجوانب الأخرى من الرسالة الإسلامية التربوي والأخلاقي والتشريعي، كل واحد منها تدريجياً وعلى مراحل، والشواهد على ذلك كثيرة واضحة.

الثاني: التدرج في مساحة نشر الرسالة حيث بدأ دعوته بالمختصين به مثل الإمام علي(عليه السلام) وزوجته خديجة بنت خويلد، وولده بالتبني زيد بن حارثة، ثم وسعها لتشمل أقاربه تنفيذاً لما أمره الله تعالى (وأندر عشيرتك الأقربين) (٢٩)، بعد ذلك عمّمها لمساحات اخرى على الترتيب التالي: أهل مكة ثم العرب في الجزيرة العربية ثم الشعوب والأمم الأخرى من خلال الكتب التي أرسلها للملوك والحكام آنذاك.

الثالث: التدرج في اساليب الدعوة للاسلام.

فبينما بدأ رسالته بحذر بالغ في السنوات الثلاث الأولى حتى نزل عليه قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فجاهر بها دعوة علنية سلمية حتى بالنسبة للمعتدين عليه وعلى اتباعه رغم ما عاناه هو والمسلمون آنذاك - بمن فيهم عشيرته - من البطش والتعذيب والحصار والنبذ والتهكم وغيرها مما كان يمارسه اعداؤه قبل الهجرة... ثم بعد أن هاجر الى المدينة انتهج سياسة الجهاد المسلح لمواجهة المعتدين وردعهم.

على ضوء هذا التدرج في تعاليم الرسالة الإسلامية ومواقف الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) يتضح جانب هام من حكمة بل ضرورة التدرج في نزول القرآن الكريم.

إذ بعد أن عرفنا أهمية القرآن ودوره في الإسلام ومكانته لدى المسلمين يتضح مدى أهمية هذا التدرج في نزوله، لأن القرآن الكريم يمثل مصدراً رئيسياً لبيان تعاليم الإسلام وتشريعاته المختلفة التي يفترض إبلاغها تدريجياً، باعتبار أن الإسلام جاء لإحداث نقلة نوعية في مجتمعات الحجاز والجزيرة، لأن تعاليمه تختلف جذرياً عما كانوا عليه من جميع الأبعاد العقائدية، والسلوكية، والاجتماعية فكان لا بد من التدرج لضمان الانصياع المتدرج لتعاليم الدين الجديد والتفاعل معها. لذلك أمكن أن نعتبر:

العامل الأول: في تدرج نزول القرآن هو ضرورة انسجامه مع تدرج الرسالة الإسلامية باعتبار دوره الحيوي فيها.

وفي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام): "ليس أحد أرفق من الله تعالى، ومن رفقته تبارك وتعالى أن ينقلهم من خصلة إلى خصلة، ولو حمل عليهم جملة واحدة لهلكوا" (٣٠).

العامل الثاني: يرتبط بشخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوه في مهمته وتحمله لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإسلامية.

كما اشارت الآية الكريمة جواباً على تساؤل الكفار عن هذه النقطة بالذات (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) (٣١).

فإن الارتباط المحسوس والمستمر بالسماء عامل هام في تثبيت فؤاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقوية عزائمه هو وأصحابه ازاء ما يواجهه من مؤامرات الأعداء والمواقف المحرجة الأخرى، خلال رحلته الرسالية وتحمله لهذه المسؤولية الثقيلة.

"الدرس السابع والعشرون"

سلامة القرآن من التحريف

وهذا من أهم ما اهتم به الباحثون في علوم القرآن.

وقبل البحث في ذلك لابد أن نمرّ على معاني التحريف وتحديد الموقف من كل واحد منها..

المعنى الأول: التحريف في تفسير القرآن الكريم، بمعنى حمل الآيات الكريمة على غير معناها الحقيقي، كما يفعل الظالمون وأعدائهم، وأهل البدع والمنحرفون حيث يفسّرون الآيات القرآنية بغير معانيها تبعاً لأهوائهم أو آرائهم المنحرفة.

قال ابن منظور: والتحريف في القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه والكلمة عن معناها وهي قريبة الشبه، كما كانت اليهود تغيّر معاني التوراة بالأشباه، فوصفهم الله بفعالهم، فقال تعالى: (يحرّفون الكلم عن مواضعه) (٣٢)

وهذا المعنى من التحريف لا يشك أحد من المسلمين في تحققه قديماً وحديثاً، وقد ورد ذمّ هؤلاء المحرّفين والتحذير منهم، قال الإمام علي(عليه السلام) في نهج البلاغة: "إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه.."(٣٣)، وقال(عليه السلام) في وصف أهالي بعض الأزمنة المستقبلية: "وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق (أي أروج) منه إذا حرّف عن مواضعه..."(٣٤).

وفي رسالة الإمام محمد الباقر(عليه السلام) إلى سعد الخير: "وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده فهم يروونه ولا يروونه"(٣٥).

المعنى الثاني: استبدال بعض الكلمات القرآنية بغيرها، بمعنى أنّ بعض الكلمات الموجودة في المصحف الفعلي وُضعت بدلاً عن كلمات أخرى في القرآن النازل على الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

ورغم ورود بعض النصوص التي تضمنت ادعاء الاستبدال المزعوم إلا أن المسلمين لم يلتزموا بمضمونها، وسنشير هنا إلى بعض النصوص المذكورة..

١ - ما حكاه البخاري وغيره عن عمر أنه كان يقرأ سورة الجمعة (فامضوا إلى ذكر الله) بدلاً من (فاسعوا إلى ذكر الله) (٣٦).

٢ - أخرج ابن شاهين في السنّة عن إسماعيل بن مسلم قال: "في حرف أبي بن كعب (غير المغضوب عليهم وغير الضالين..)" (٣٧).

المعنى الثالث: ادعاء الزيادة في القرآن.

وقد اتفق شيعة أهل البيت (عليهم السلام) على رفض التحريف المذكور، وأمّا علماء الجمهور فرغم ادعائهم الإجماع على رفضه أيضاً، إلا ان مراجعة آرائهم وما نسبوه لبعض الصحابة ينافي ذلك.

فمن ذلك البسمة فإنها رغم ثبوتها وكتابتها - في فواتح السور - إلا انهم اختلفوا في كونها من القرآن الكريم أو أنّها زائدة فيه، وفصل بعضهم بين بسمة سورة الفاتحة وغيرها، فزعم أنها جزء من الفاتحة دون غيرها، وقد منع مالك من قراءتها في الصلاة في الفاتحة وغيرها (٣٨).

ومنها: ما نسبوه لابن مسعود من أنّه اسقط سورة الفاتحة من مصحفه (٣٩). وإنه كان لا يرى المعوذتين من ضمن القرآن الكريم وأنه كان يقول: "لا تخطوا بالقرآن ما ليس منه، انهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي أن يتعوذ بهما، وإنه كان لا يقرأ بهما في صلاته" (٤٠).

وحكى ابن حجر ان الرازي وابن حزم انكرا صحة هذه النسبة الى ابن مسعود، لكنه أصرّ عليها قائلاً: "والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يُقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل" (٤١).

وقال الدكتور محمد حسين الصغير - متحدثاً عن رواية اسقاط سورة الفاتحة -: "ويبدو لي ان الرواية مكذوبة على ابن مسعود جملة وتفصيلاً، للايهام - بدافع سياسي - بأن عدم اشراكه عند جمع المصحف - كما يدعى - كان لهذا وأمثاله" (٤٢).

المعنى الرابع: ادعاء نقصان المصحف الموجود عن القرآن النازل على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

والمشهور بين المسلمين انكار التحريف بهذا المعنى. ولكن قد تثار شبهات، تبعاً لمجاميع النصوص التي قد توهم وقوع التحريف، وهو ما سنعالجه هنا..

الشبهة الأولى:

مجموعة كبيرة من النصوص التي رواها علماء الجمهور ومحدثوهم، نذكر منها:

(١) ما رواه البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال.. "ان الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل آية الرجم فعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق وعلى من زنا إذا أحسن من الرجال والنساء.. ثم إننا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم - أو إن كفرأ بكم أن ترغبوا عن آبائكم -..." (٤٣).

(٢) ما رواه عن عائشة أنها قالت: "كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات محرّمن، ثم نسخن بخمس معلومات يحرمّن، فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهن فيما يقرأ من القرآن" (٤٤).

وقد رواه عن عائشة قولها: "لقد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تشاغلنا بموته فدخل داجن فأتلفها" (٤٥).

(٣) ما رواه عن عبدالله بن عمر أنه قال: "لا يقولن أحدهم أخذت القرآن كله، ما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقول: قد أخذت منه ما ظهر" (٤٦).

(٤) ما رواه الطبراني عن عمر بن الخطاب: "القرآن ألف ألف حرف فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين" (٤٧).

وهذا يعني ضياع أكثر من ثلثي القرآن - كما قيل -.

(٥) ما رواه عن أبي بن كعب ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال له: إن الله أمرني أن أقرأ عليك، فقرأ عليه (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) (٤٨) فقرأ فيها: إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية، من يعمل خيراً فلن يكفر هو. وقرأ عليه: ولو أن لابن آدم وادياً من مال لابتغى إليها ثانياً، ولو كان له ثانياً لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب (٤٩).

٦) قراءة أبي بن كعب: " (إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها) (٥٠) من نفسي فكيف أظهركم عليها" (٥١).

وهناك نصوص أخرى في هذا الباب امتلأت بها صحاح الجمهور وكتبهم.

ورغم محاولة الكثير منهم تأويلها بأنها من باب نسخ التلاوة في زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أنّ العديد من هذه النصوص لا تتحمل هذا التأويل لظهورها، بل التصريح في بعضها بأنّ هذه الآيات المزعومة كانت ضمن القرآن الى ما بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

"الدرس الثامن والعشرون"

ويكفي في الجواب عن هذه الروايات ورفضها افتقار الآيات المزعومة للحد الأدنى من المستوى الفني والبلاغي المألوف في كلام البلغاء وأسلوبهم، فضلاً عن أن ترتقي الى روعة القرآن الكريم ومكانته السامية التي حيّرت البلغاء وأهل الفصاحة على مرّ العصور، حتى قال عنه الوليد بن المغيرة المخزومي: "ما هذا من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه" (٥٢).

وهذا يشهد بأنّ هذه الروايات - رغم ورودها في صحاح الجمهور - من عبث الرواة أو دسائس المحرّفين والطغاة. وإنّ عجزهم عن مجارة القرآن الكريم مضموناً وأسلوباً خير شاهد على تميزه واعجازه (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (٥٣).

وقد تنبّه بعض المحققين منهم، فرفض هذه النصوص جملة وتفصيلاً، معترفاً بعدم جدوى تأويلها بنسخ القرآن مثل السرخسي - بالنسبة لنسخ الحكم والتلاوة - والجزيري والسايس والعريض.

قال السرخسي: لا يجوز هذا النوع من النسخ - نسخ الحكم والتلاوة - عند المسلمين، وقال بعض الملحدّين ممّن يتستّر بإظهار الإسلام - وهو قاصد الى افساده - هذا جائز بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً واستدلّ في ذلك بما روي أن أبا بكر الصديق كان يقرأ "لا ترغبوا عن آبانكم فانه كفر بكم" وأنس كان يقول: قرأنا في القرآن "بلغوا عنّا قومنا انا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا" وقال عمر: قرأنا آية الرجم في كتاب الله ووعيناها. وقال أبي بن كعب: "إنّ سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة أو أطول منها".. والشافعي لا يُظنّ به موافقة هؤلاء في هذا القول، ولكنه استدلّ بما هو قريب من هذا في عدد

الرضعات، فإنه صحّح ما يروى عن عائشة: وإنّ مما أنزل في القرآن "عشر رضعات معلومات يحرم من"، فُسخن بـ"خمس رضعات معلومات"، وكان ذلك مما يتلى في القرآن بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

قال: والدليل على بطلان هذا القول قوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٥٤).. وقد ثبت انه لا ناسخ لهذه الشريعة بوحى ينزل بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولو جوزنا هذا في بعض ما أوحى إليه لوجب القول بتجويز ذلك في جميعه، فيؤدي الى القول بأن لا يبقى شيء مما ثبت بالوحي بين الناس في حال بقاء التكليف. وأي قول أقبح من هذا؟! (٥٥).

وقال الجزيري.. فمن المشكل الواضح ما يذكره المحدثون من روايات الأحاد المشتملة على أنّ آية كذا كانت قرآناً ونسخت، على أنّ مثل هذه الروايات قد مهّدت لأعداء الإسلام ادخال ما يوجب الشك في كتاب الله من الروايات الفاسدة، فهذه وامثاله من الروايات التي فيها الحكم على القرآن المتواتر بأخبار الأحاد - فضلاً عن كونه ضاراً بالدين - فيه تناقض ظاهر (٥٦).

"الدرس التاسع والعشرون"

الشبهة الثانية: مجموعة من الروايات المروية عن بعض الصحابة أو أئمة أهل البيت(عليهم السلام) التي توحى بوقوع التحريف، وهي مختلفة في دلالاتها، لذلك نذكرها بأقسامها:

القسم الأول: الروايات التي تستخدم لفظة التحريف، وهي عشرون رواية (٥٧)، منها:

١ - ما عن علي بن إبراهيم القمي، بإسناده عن أبي ذر قال: "لما نزلت هذه الآية (يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه) (٥٨) قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): تردّ أمتي عليّ يوم القيامة على خمس رايات - ثم ذكر ان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يسأل الرايات عمّا فعلوا بالثقلين - فنقول الراية الأولى: أمّا الأكبر فحرّفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأمّا الأصغر فعاديناها وابعضناه وظلمناه. ونقول الراية الثانية: أمّا الأكبر فحرّفناه ومزقناه وخالفناه، وأمّا الأصغر فعاديناها وقتلناه.

٢ - ما عن ابن طاووس والسيد المحدث الجزائري بإسنادهما عن الحسن بن الساهري في حديث طويل ان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال لحذيفة فيما قاله في من يهتك الحرم: "أته يضلّ الناس عن سبيل الله ويحرّف كتابه، ويغيّر سنّتي".

٣ - ما عن سعد بن عبدالله القمي، بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر(عليه السلام) قال: "دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال: "أيها الناس ائني تارك فيكم الثقلين، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي، والكعبة البيت الحرام" ثم قال أبو جعفر(عليه السلام): "أما الكتاب فحرّفوا، وأما الكعبة فهدموا، وأما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا منها قد تبروا".

٤ - ما عن الصدوق في الخصال بإسناده عن جابر عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون الى الله عزّ وجلّ: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف يا ربّ حرّقوني ومزقوني، ويقول المسجد يا رب عطلوني وضيعوني، وتقول العترة يا رب قتلونا وطرّدونا وشرّدونا.

٥ - ما عن الكافي والصدوق بإسنادهما عن علي بن سويد قال كتبت الى أبي الحسن موسى(عليه السلام) وهو في الحبس كتاباً... الى أن ذكر جوابه(عليه السلام) بتمامه، وفيه قوله(عليه السلام): "أؤتمنوا على كتاب الله فحرّفوه وبدّلوه".

٦ - ما عن ابن شهر آشوب بإسناده عن عبدالله في خطبة الإمام الحسين(عليه السلام) في يوم عاشوراء وفيها: إنّما أنتم من طواغيت الأمة وشداد الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان وعصبة الآثام، ومحرّفي الكتاب.

٧ - ما عن الحجال عن قطبة بن ميمون عن عبدالأعلى، قال: قال أبو عبدالله(عليه السلام): أصحاب العربية يحرفون كلام الله عزّ وجلّ عن مواضعه.

ويمكن المناقشة في الاستدلال بهذه الروايات على التحريف فنقول: أمّا الرواية الأخيرة فهي تشير الى بعض علماء العربية الذين كانوا يتلاعبون بالنصوص القرآنية على أساس اجتهاداتهم في علوم العربية، وتشير روايات الجمهور الى وجود هذه الفكرة لدى البعض، وربما انتشراها، وفي بعض نصوصهم نسبتها الى عدد من الصحابة والتابعين..

منها: ما أخرجه الطبري في التفسير عن ابن عباس أنّه كان يقرأ (أفلم يتبينّ الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً).

قيل له: أنّه في المصحف (أفلم بيأس) قال: أظنّ الكاتب كتبها وهو ناعس، وقال ابن جريح: زعم ابن كثير وغيره أنّها في القراءة الأولى "أفلم يتبينّ" (٥٩) قال ابن حجر هذا الحديث رواه الطبري بإسناد صحيح، كلهم من رجال البخاري" (٦٠).

ومنها: ما زعمه عروة بن الزبير بشأن اللحن في الآيات الثلاث التالية:

١ - في سورة طه: ٦٣ (إنّ هذان لساحران).

٢ - في سورة المائدة: ٦٩ (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون).

٣ - في سورة النساء: ١٦٢ (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة).

قال: سألت عائشة عن ذلك فقالت: يا بن اختي، هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتابة، قال جلال الدين السيوطي: إسناد صحيح على شرط الشيخين (٦١).

وعن أبي خالد قال قيل لأبان بن عثمان كيف صارت (والمقيمين الصلاة) وما بين يديها وما خلفها رفع؟ قال: من قبل الكاتب، كتب ما قبلها، ثم سأل المملي: ما اكتب قال: اكتب المقيمين الصلاة، فكتب ما قيل له (٦٢).

وهناك روايات عديدة تؤكد ان بعض علماء العربية كان يطبق اجتهاده على القرآن، ومن الواضح ان هذا سلوك غير سليم يؤدي الى التحريف وتغيير النص القرآني.

"الدرس الثلاثون"

وأما باقي النصوص المتقدمة التي قد يستدلّ بها على تحريف القرآن فنقول: ليست تلك النصوص واضحة الدلالة على ذلك، بل في بعضها دلالة واضحة على ان المراد من التحريف حمل الآيات على غير معانيها، خصوصاً انه معنى شائع للتحريف، كما ذكره بعض اللغويين، قال ابن منظور: "والتحريف في القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه، والكلمة عن معناها وهي قريبة الشبه، كما كانت اليهود تغير معاني التوراة بالأشباه" (٦٣).

وقد أخذ هذا عن كتاب العين للخليل، حيث لم يذكر غيره (٦٤).

ومما يشهد على انسجام ما في هذه النصوص مع التحريف في المعنى أي حمل الآيات على غير معناها امران:

الأول: ان هذه الروايات واردة لبيان انحراف بعض الفئات عن مسير الحق الذي رسمه الله سبحانه، لذلك اعتُبر في الحديث الثاني وصفاً لمن يهتك الحرّم. فينطبق على حرف اللفظ عن معناه، المنسجم مع إضلال الناس وتغيير السنّة الواردين في الحديث المذكور.

الثاني: ان تحريف الكتاب مقرون في هذه النصوص بالمعاصي التي تنسجم مع الانحراف، مثل معاداة أهل البيت(عليهم السلام) وقتالهم، وإضلال الناس عن سبيل الله، وتغيير السنّة، وغير ذلك مما أشارت إليه النصوص. دون المعاصي المجرّدة التي لا ترتبط بذلك مثل الفحش في القول وأكل الميتة ونحو ذلك، وهو شاهد على أن المقصود من التحريف هو ما يرجع للمعنى الموجب للانحراف، لا مجرد تغيير اللفظ، كما تضمنته بعض روايات التحريف.

وقد أشارت بعض النصوص صراحةً الى ذلك، وانّ هؤلاء المنحرفين لم يحرفوا اللفظ القرآني، مثل ما رواه الكليني بإسناده عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنّه كتب في رسالة الى سعد الخير: "وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية"(٦٥).

القسم الثاني: مجموعة الروايات التي دلت على أن بعض الآيات القرآنية قد ذُكرت فيها اسماء الائمة(عليهم السلام)..(٦٦).

منها: رواية الكليني(٦٧) بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن(عليه السلام)، قال: "ولاية علي بن أبي طالب مكتوب في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوّة محمد وولاية وصيه، صلى الله عليهما وآلهما".

ومنها: رواية العياشي بإسناده عن الصادق(عليه السلام): "لو قرئ القرآن كما أنزل لألفينا مسمين".

ومنها: رواية الكليني والعياشي عن أبي جعفر(عليه السلام) عن ابن عباس، وقرات بن إبراهيم الكوفي عن الأصبع بن نباتة:

قالوا: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): "القرآن نزل على أربعة أرباع، ربع فينا، وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام، ولنا كرائم القرآن".

ومنها: رواية الكليني أيضاً بإسناده عن أبي جعفر(عليه السلام)، قال: "نزل جبرئيل بهذه الآية على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) هكذا: وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا - في علي - فأتوا بسورة من مثله".

ومن ذلك ما روي من اضافة لفظ "في علي" في آية البلاغ من سورة المائدة ويمكن المناقشة في دلالة هذا القسم على التحريف بوجوه.

الأول: ان الزيادة في النص الأخير لا تنسجم مع الآية نفسها، إذ الآية نزلت تحدياً للمشركين بإتيانهم بسورة مماثلة لأية سورة من القرآن، حيث احتجت بعجزهم عن ذلك على صدق الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في دعواه الرسالة، فلا معنى لإقحام تلك الزيادة - في علي - فلا بدّ أن يكون المقصود من الرواية - على فرض صدورها - مجرد تطبيق الآية على الإمام علي(عليه السلام) لا نزول النص باسمه.

الثاني: وجود بعض الشواهد والنصوص على عدم وجود أسماء أهل البيت(عليهم السلام) في نص القرآن، مثل صحيحة أبي بصير المروية في الكافي قال: سألت أبا عبدالله(عليه السلام) عن قوله تعالى:(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (٦٨)، قال: فقال: "نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين(عليهم السلام)" فقلت له: ان الناس يقولون فما له لم يسمّ علياً وأهل بيته في كتاب الله عزّوجل؟ قال: فقال(عليه السلام): "قولوا لهم ان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نزلت عليه الصلاة، ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي فسّر لهم ذلك. ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً درهم حتى كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي فسّر ذلك لهم.." (٦٩).

وتؤكد ما ذكرناه رواية عمار الساباطي عن أبي عبدالله(عليه السلام) قال: "قال تعالى بشأن علي(عليه السلام) (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه قل هل يستوي الذين يعلمون (أنّ محمداً رسول الله) والذين لا يعلمون (انّ محمداً رسول الله وأنه ساحر كذاب) انما يتذكر أولو الألباب) ".

ثم قال: أبو عبدالله(عليه السلام): "هذا تأويله يا عمّار" (٧٠).

وكذلك رواية الكليني وغيره لأية البلاغ في سورة المائدة من دون زيادة لفظ "في علي" كما ستأتي الإشارة إليها.

الثالث: ما تقدمت الإشارة إليه من بعض الروايات التي تنفي التحريف، مثل النص الذي رواه الكليني عن الإمام الباقر(عليه السلام) في رسالته الى سعد الخير، وفيها: "وكان من نبذهم الكتاب أنّهم أقاموا حروفه وحرفوا حدوده".

الرابع: ان التحريف لو كان ثابتاً لا عترض الإمام علي(عليه السلام) وأصحابه على القوم كما واجهوهم بالاحتجاج بالأحاديث النبوية في فضائل آل البيت(عليهم السلام) وإمامتهم - كحديث الغدير وحديث الطائر المشوي - ووردت نبذة منه في كتب الجمهور.

خصوصاً أنّ القرآن كان له حفظة - كلاً أو بعضاً - وقد انتشر هؤلاء في ربوع الدولة الإسلامية المترامية، وكان كثير منهم يوالي الإمام علياً (عليه السلام) فكيف لم تحفظ الآيات المحرّفة المزعومة؟ خاصة ان روايات التحريف بالنقيصة تدلّ على تحريف كثير من الآيات، فكيف يمكن التلاعب بهذه الكمية الكبيرة من الآيات مع وجود الحافظين والكاتبين لها؟!!

الخامس: ان الرجوع للنصوص الواردة في سبب النزول أو النصوص التفسيرية ينفي فرضية التحريف، اذ لا يظهر فيها أية اشارة للأجزاء المقتطعة من الآيات، بينما نجد كثيراً من هذه النصوص تضمّنت تفسير مجموعة كبيرة من الآيات أو نزولها في حق أهل البيت (عليهم السلام) حتى انعكس ذلك وعلى نطاق واسع في كتب الجمهور ولدى روايتهم رغم معارضة السلطات لذلك، فلماذا خفيت كل تلك النصوص المزعومة دون هذه؟!!

"الدرس الحادي الثلاثون"

القسم الثالث: الروايات الدالة على وقوع التحريف بتغيير أو اضافة أو حذف بعض الكلمات...

(١) قال السيوطي: "أخرج وكيع وأبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابي داوود وابن الأنباري كلاهما في المصاحف من طرق عن عمر بن الخطاب أنّه كان يقرأ: سراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين.." وروي نظير ذلك عن عبدالله بن الزبير وعكرمة الأسود (٧١). وروي نظير ذلك في تفسير القمي عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام).

وقال أيضاً: "وأخرج ابن شاهين في السنّة عن اسماعيل بن مسلم قال: في حرف أبيّ بن كعب "غير المغضوب عليهم وغير الضالين. أمين. بسم الله" (٧٢).

(٢) ما حكاه البخاري وغيره عن عمر أنّه كان يقرأ آية سورة الجمعة (فامضوا الى ذكر الله) بدلاً من (فاسعوا الى ذكر الله) (٧٣).

وروى البيهقي في سننه عن سالم عن أبيه قال: "ما سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرؤها إلا (فامضوا الى ذكر الله... أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، فذكره بنحوه) (٧٤).

٣) قال السيوطي: "أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي داوود وابن الأنباري معاً في المصاحف، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عمرو بن دينار قال: سمعت عبدالله بن الزبير يقرأ (في جنّات يتساءلون عن المجرمين يا فلان ما سلككم في سقر) قال عمرو: أخبرني لقيط قال سمعت ابن الزبير قال: (سمعت عمر بن الخطاب يقرأها كذلك) (٧٥).

٤) روى ابن شبة بسنده عن الحسن: قرأ عمر رضي الله عنه (والسابقون الأولون من المهاجرين الذين اتبعوهم بإحسان) فقال أبي (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) فقال عمر رضي الله عنه: (والسابقون الأولون من المهاجرين الذين اتبعوهم بإحسان) وقال عمر رضي الله عنه: أشهد أنّ الله أنزلها هكذا، فقال أبي رضي الله عنه: أشهد أنّ الله أنزلها هكذا ولم يؤمر فيها الخطاب ولا ابنه" (٧٦).

٥) ما رواه علي بن إبراهيم القمي بإسناده عن حريز عن أبي عبدالله (عليه السلام): "صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين".

٦) ما عن العياشي عن هشام بن سالم، قال: سألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن قوله تعالى: (إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران) (٧٧). قال: "هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين، فوضعوا اسماً مكان اسم، أي أنهم غيروا فجعلوا آل محمد آل عمران" (٧٨). والجواب عن هذه الروايات وأمثالها بوجوه:

الأول: انها ضعيفة السند، كما أشار الى ذلك السيد الخوئي (رحمه الله).

الثاني: انها مخالفة للكتاب والسنة وإجماع المسلمين على عدم الزيادة في القرآن ولا حرفاً واحداً حتى من القائلين بالتحريف، قال السيد الخوئي (رحمه الله): "وقد ادعى الاجماع جماعة كثيرون على عدم الزيادة في القرآن وممن ادعى الاجماع الشيخ المفيد والشيخ الطوسي والشيخ البهائي وغيرهم من الاعاظم قدس الله أسرارهم" (٧٩).

الثالث: ان سورة الفاتحة تتوقف عليها صحة الصلاة، فكيف نفترض خطأ المسلمين، في قراءتها، خصوصاً ان التحريف في الرواية المزعومة مجرد تغيير ألفاظ لا يؤثر على المعنى، فلا داعي له، وكيف سكت المسلمون، والأئمة عن ذلك، وجرت سيرتهم على الخطأ؟

وكذلك سورة الجمعة التي اعتاد المسلمون قراءتها يوم الجمعة كيف لم يحفظها غير عمر، والأغرب من هذا ادعائه نسخها، من دون أن يعرف ذلك المسلمون؟! وما أدري كيف يعالجها علماء الجمهور حيث وردت في كتبهم المعتبرة؟!!

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة الدخان: ٣.

(٣) سورة القدر: ١.

(٤) الخصال: ١٠٢ / ٢.

(٥) تلخيص التمهيد: ٦٩ / ١.

(٦) في ظلال القرآن: ٧٩ / ٢.

(٧) الاعتقادات: ١٠١.

(٨) يراجع تلخيص التمهيد: ٧٨/١.

(٩) سورة البقرة: ١٨٥.

(١٠) أصول الكافي: ٦٢٨ / ٢.

(١١) الدر المنثور: ١٨٩ / ١.

(١٢) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

(١٣) الصافي: ٤٢ / ١.

(١٤) سورة هود: ١.

(١٥) سورة الواقعة: ٧٧ - ٧٩.

(١٦) سورة الاعراف: ٥٢.

(١٧) الميزان: ١٥ / ٢ - ١٦.

(١٨) تصحيح اعتقاد الإمامية: ١٠٣.

(١٩) المناقب: ١٥٠ / ٢.

(٢٠) متشابهات القرآن: ١ / ٦٣.

(٢١) تلخيص التمهيد: ١ / ٦٨.

(٢٢) يراجع طبقات ابن سعد: ١ / ١٢٩.

(٢٣) تاريخ الأمم والملوك: ٢ / ٤٤.

(٢٤) الكافي: ٤ / ١٤٩.

(٢٥) منتخب كنز العمال بهامش المسند: ٣ / ٣٦٢ وروى ذلك الحافظ الدميّاطي عن أبي هريرة في السيرة الحلبية: ١ /

٣٢٨.

(٢٦) راجع اصول الكافي: ٢ / ٦٢٩. تفسير العياشي: ١ / ٨٠. الاعتقادات: ١٠١. البحار: ١٨ / ٢٥٠ - ٢٥٣، وغيرها مثل

مستدرك الحاكم: ٢ / ٦١٠.

(٢٧) مستدرك الحاكم: ٢ / ٢١٠.

(٢٨) سورة الفرقان: ٣٢.

(٢٩) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٣٠) نفحات الرحمن: ٨ / ١.

(٣١) سورة الفرقان: ٣٢.

(٣٢) لسان العرب: ٤٣ / ٩.

(٣٣) تصنيف نهج البلاغة: ٢٠٧، الطبعة الثانية.

(٣٤) المصدر: ٢٠٩.

(٣٥) اصول الكافي: ٢ / ٦٣١، حديث ١٦.

(٣٦) يراجع الجامع الصحيح: ٤ / ٣٠٨.

(٣٧) الدر المنثور: ١ / ١٧.

(٣٨) يراجع بداية المجتهد: ١ / ١٢٦.

(٣٩) يراجع الاتقان في علوم القرآن: ١ / ٢٢٤.

(٤٠) يراجع فتح الباري لابن حجر: ٨ / ٥٧١، والدر المنثور: ٦ / ٤١٦.

(٤١) فتح الباري: ٨ / ٥٧١.

(٤٢) دراسات قرآنية: ١٦٠، الطبعة الثانية.

(٤٣) الجامع الصحيح: ٤ / ٢٥٨ حديث ٦٨٣٠. ورواه غيره أيضاً.

(٤٤) المحلى: ١١ / ٩٢ مسألة ١٨٧٢.

(٤٥) المحلى: ١٣ / ٩٧ مسألة ٢٢٠٨.

(٤٦) الإتيان: ٣ / ٧٢.

(٤٧) الاتقان في علوم القرآن: ١ / ٢٤٢ مطبعة أمير.

(٤٨) سورة البيّنة: ١.

(٤٩) صحيح الترمذي: ٦٦٦/٥. المناقب حديث: ٣٨٠٣. راجع صحيح مسلم بشرح النووي: ١٤٠/٧ كتاب الزكاة. حيث روى قريباً من ذلك عن أبي موسى الأشعري. بينما روى البخاري مضمون النصف الثاني من النص عن النبي ٩ من دون أن يذكر انه من القرآن، وهو يشهد بما سنذكره من اضطراب هذه الروايات ورفضها.

(٥٠) سورة طه: ١٥.

(٥١) يراجع هامش تلخيص التمهيد نقلاً عن ابن خالويه: ١ / ٣٠١.

(٥٢) تفسير القرطبي: ١٠ / ١٦٥، تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٢.

(٥٣) سورة الاسراء: ٨٨.

(٥٤) سورة الحجر: ٩.

(٥٥) أصول السرخسي: ٢ / ٧٨ - ٧٩.

(٥٦) الفقه على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

(٥٧) راجع البيان: ٢٤٢.

(٥٨) سورة آل عمران: ١٠٦.

(٥٩) جامع البيان: ١٣ / ١٠٤.

(٦٠) فتح الباري: ٨ / ٢٨٢.

(٦١) الاتقان: ١ / ١٨٢، الطبعة الاولى.

(٦٢) المصاحف للسجستاني: ٣٣.

(٦٣) لسان العرب: ٩ / ٤٣، دار صادر.

(٦٤) راجع ترتيب كتاب العين: ١٧٣ مادة حرف.

(٦٥) روضة الكافي: ٨ / ٥٣ حديث ١٦.

(٦٦) هذه أهم الروايات التي استغلها المرجفون والمتعصبون لتمزيق وحدة الصف الاسلامي وتشويه مذهب أهل البيت (عليهم السلام) سوف يتضح الموقف السليم فيها والفهم الصحيح لها، كما سنشير إلى مجموعة من النصوص المشابهة لها المروية عن بعض الخلفاء والصحابية والتابعين.

(٦٧) إن مجرد وجود روايات معيّنة في المصادر الحديثية الشيعية لا يعني التزام مؤلفيها بمضمونها، لأن مفهوم الكتاب الحديثي الصحيح غير موجود في الثقافة العلمية الشيعية، خاصة مع وجود ما يعارض تلك الروايات في نفس الكتاب، كما سنشير إليه خلال هذا البحث.

(٦٨) سورة النساء: ٥٩.

(٦٩) الكافي: ١ / ٢٨٦ حديث ١.

(٧٠) الكافي: ٨ / ٢٠٤، حديث ٢٦٤.

(٧١) يراجع الدر المنثور: ١ / ١٥. وكذلك كنز العمال: ٢ / ٥٩٣ ومعالم التنزيل: ١ / ٤٢ ومحاضرات الراغب: ٢ / ١٩٩ والتسهيل وغيرها.

(٧٢) الدر المنثور: ١ / ١٧.

(٧٣) يراجع الجامع الصحيح: ٣ / ٣٠٨.

(٧٤) سنن البيهقي: ٣ / ٢٢٧، وروى ابن شبة عن إبراهيم عن خرشة بن الحرق قال: رأى معي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لوحاً مكتوباً فيه (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله) فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبي بن كعب. فقال: إنَّ أبايَّ كان أقرأنا للمنسوخ. اقرأها (فامضوا الى ذكر الله). تاريخ المدينة: ٧١١/٢. وحكاها السيوطي عن أبي عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن الأثري في المصاحف. يراجع الدر المنثور: ٦ / ٢١٩.

(٧٥) الدر المنثور: ٦ / ٢٨٥، ويراجع كنز العمال: ٢ / ٥٩٤.

(٧٦) تاريخ المدينة: ٧٧٠/٢. بينما حكى السيوطي عن ابن جرير وأبي الشيخ عن محمد بن كعب القرظي ما يدل على ارتداع عمر عن إصراره على قراءته وإنَّ عمر قال لأبي بن كعب عندما خالفه في قراءته: "أنت أقرأت لهذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رُفَعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا! فقال أبي: تصديق ذلك في أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) وفي سورة الحشر (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ومن الأنفال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم). الدر المنثور: ٣ / ٢٩٦. والغريب أن يخطأ عمر في هذه الآية الواردة في السابقين من المهاجرين والأنصار وتابعيهم.

(٧٧) سورة آل عمران: ٣٣.

(٧٨) البيان: ٢٥٢.

(٧٩) البيان: ٢٥٢.

"الدرس الثاني والثلاثون"

الرابع: وجود روايات عديدة عن أهل البيت (عليهم السلام) في تفسير هذه السور والآيات من دون هذا التغيير المزعوم.

منها: ما رواه في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير سورة الفاتحة الى أن قال: "وأما قوله (ولا الضالين) "...إلخ(١).

وكذلك ما رواه في الكافي عن حمران بن أعين عن أبي جعفر (عليه السلام) "والذين كفروا أولياؤهم الطواغيت" (٢) فإنه معارض ببعض النصوص الواردة في تفسير آية الكرسي من دون هذا التغيير منها: ما جاء في تفسير القمي عن الإمام الرضا (عليه السلام) (الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت.. (٣).

وكذلك ما روي عن حمران قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقرأ هذه الآية "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل محمد على العالمين" قلت: ليس يقرأ هكذا، فقال: أدخل حرف مكان حرف (٤).

فإنه معارض بما رواه الكليني بسنده عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) ... قول الله عزّوجلّ (إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) (٥).

وكذا ما روي من إضافة لفظ "في علي" في آية البلاغ من سورة المائدة، فإنه معارض بنصوص عديدة لهذه الآية من دون هذه الزيادة منها: ما رواه الكليني بسند معتبر عن الفضلاء الخمسة وغيرهم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: "فأوحى الله عزّوجلّ إليه (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) (٦) فصدع بأمر الله تعالى ذكره.. (٧).

كل هذا يؤكد ان تلك الزيادات يقصد منها مجرد التفسير أو التطبيق.

الخامس: يلاحظ انّ بعض النصوص أشارت الى هذه الزيادات ضمن تفسير الآيات لا أنها جزء منها، فيكون ما تعارف من اقسام التفسير في النص هو السبب في الالتباس، فبينما نرى في مرسلته ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عزّوجلّ (سيطوقون ما بخلوا به (من الزكاة) الى يوم القيامة).

نجد في نص آخر تصريحاً بأنّ هذه الزيادة للتفسير لا أنها جزء من الآية، وذلك فيما رواه الكليني بطريقتين معتبرتين عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عزّوجلّ (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) (٨) فقال: "يا محمد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله عزّوجلّ ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب" ثم قال: "هو قول الله عزّوجلّ: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) يعني ما بخلوا به من الزكاة" (٩).

فنجد تصريحاً في هذا النص بأنّ فقرة "من الزكاة" تفسير لا جزء الآية. بينما يوحى النص الأول أنها من ضمن الآية. وكأنّه بسبب إقحام التفسير في كتابة النص آنذاك، كما نلاحظه في المخطوطات القديمة.

وهناك مجموعة من النصوص أشارت الى هذا التعارف والتحذير منه. فقد ذكر أبو حمزة: أن إبراهيم النخعي رأى في مصحفه فاتحة كذا وكذا. فقال لي: امحه، فإنّ عبدالله بن مسعود قال: لا تخطوا بكتاب الله ما ليس فيه.

وذكروا أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "اخلصوا القرآن وامحضوه"(١٠).

موقف المسلمين من فكرة التحريف

١ - موقف علماء العامة

قدّمنا سابقاً أنّ كثيراً من علماء العامة ومحدّثيهم اعتمدوا على روايات وردت في صحاحهم وكتبهم الروائية المعتمدة حول بعض اقسام النسخ في القرآن، وأوضحنا سابقاً ان مقتضى تلك الروايات هو تحريف القرآن، حيث نسبت الى بعض الصحابة ادّعاء أن هناك بعض الآيات قد حُذفت بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مثل آية الرجم، وآية الجهاد، وآية الفراش وغيرها(١١).

بل في بعضها أنّه قد ذهب منه قرآن كثير(١٢). وفي بعض تلك الروايات ما يدلّ أن القرآن الموجود أقل من ثلث القرآن الكامل(١٣).. الى غير هذه من الدعاوى الباطلة(١٤).

٢ - موقف علماء الشيعة

عُرف عن علماء الشيعة رفضهم لفكرة التحريف بكل أشكالها، ونشير الى بعض تصريحاتهم في مؤلفاتهم:

أ) الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت: ٣٨١): قال: "اعتقادنا ان القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك... قال: ومن نسب إلينا أنّنا نقول أنّه اكثر من ذلك فهو كاذب"(١٥).

ب) الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت: ٤١٣) قال: "وقد قال جماعة من أهل الإمامة: أنّه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين(صلى الله عليه وآله وسلم) من تأويله وتفسير معانيه

على حقيقة تنزيهه، وذلك كان ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً... قال: وعندي أنّ هذا القول أشبه من مقال من ادّعى نقصان كَلِم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أميل.

قال: وأمّا الزيادة فيه فمقطوع على فسادها ان اريد زيادة سورة على حدّ يلتبس على الفصحاء فائه متناف من تحدّي القرآن بذلك، وان اريد زيادة كلمة أو كلمتين أو حرف أو حرفين، ولست أقطع على كون ذلك، بل أميل الى عدمه وسلامة القرآن عنه. قال: ومعني بذلك حديث عن الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) " (١٦).

(ج) الشريف المرتضى علي بن الحسين علم الهدى (ت: ٤٣٦) قال - في رسالته الجوابية الأولى عن المسائل الطرابلسيات :- "ان العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطور فإنّ العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت الى حدّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، و علماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من اعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد... من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية (١٧) لا يعتدّ بخلافهم، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف الى قوم من اصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحتّها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته (١٨).

(د) شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠) قال: " وأمّا الكلام في زيادته ونقيصته فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن، لأنّ الزيادة منه مجمع على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا" (١٩).

ونلاحظ نظير هذه الكلمات لدى كثير من علمائنا السابقين واللاحقين منهم:

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨) صاحب تفسير مجمع البيان.

والعلامة الحلي جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت: ٧٢٦).

والمحقق الثاني علي بن عبدالعالي المعروف بالكركي (ت: ٩٤٠).

والمحقق الأردبيلي (ت: ٩٩٣).

وشيخ الفقهاء الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت: ١٢٢٨).

وكذلك حفيده الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت: ١٣٧٣).

والشيخ البهائي محمد بن الحسين الحارثي العاملي (ت: ١٠٣٢).

والفيض الكاشاني محمد بن المحسن (ت: ١٠٩٠).

والحرّ العاملي محمد بن الحسن بن علي - صاحب كتاب وسائل الشيعة - (ت: ١١٠٤).

والمحقق السيد محسن الأعرجي (ت: ١٢٢٧).

والحجة الشيخ محمد جواد البلاغي (ت: ١٣٠٢).

والعلامة السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (ت: ١٣٧٧).

والعلامة السيد محسن الأمين العاملي (ت: ١٣٧١).

والمرجع الديني الفقيه السيد محسن الحكيم (ت: ١٣٩٠) (٢٠).

و الفيلسوف المفسّر الشهير السيد محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢).

والمرجع الديني المحقق السيد أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣).

وقائد الثورة الإسلامية الراحل السيد روح الله الموسوي الخميني (ت: ١٤٠٩)، فقد ذكر عنه تلميذه "ان الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءةً وكتابةً يقف على بطلان تلك المزعومة. وما ورد فيه من أخبار - حسبما تمسّكوا - أمّا ضعيف لا يصلح الاستدلال به او مجعول تلوح عليه إمارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب، أمّا الصحيح منها فيرمي الى مسألة التأويل والتفسير وانّ التحريف انما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته" (٢١).

"الدرس الثالث والثلاثون"

وبرغم هذه الكلمات والمواقف الثابتة في نفي التحريف لهؤلاء الأعلام وغيرهم من علماء الشيعة قديماً وحديثاً نجد بعض من أعمامهم الحقد والتعصب الطائفي عن رؤية الحقيقة والموضوعية العلمية فنسبوا لعلماء الشيعة الأباطيل والأكاذيب.

من هؤلاء القاضي أبو بكر الباقلاني حيث نسب القول بالتحريف لشيعة أهل البيت (عليهم السلام) (٢٢).

وكذلك ابن حزم الظاهري حيث يقول: ومن قول الإمامية كلها قديماً وحديثاً أنّ القرآن مبدّل زيد فيه ما ليس فيه ونقص منه كثير وبدّل منه كثير، حاشا علي بن الحسين (الشريف المرتضى) وكان إمامياً يظاهر بالاعتزال مع ذلك، فأنه كان ينكر هذا القول ويكفر من قاله، وكذلك صاحبه أبو يعلى ميلاد الطوسي وأبو القاسم الرازي (٢٣).

وعلى غراره تحدّث أبو الحسين عبدالرحيم بن محمد الخياط في كتابه (الانتصار)، والقاضي عبدالجبار المعتزلي حيث يقول - عند كلامه عن انحاء الخلاف في القرآن الكريم -: (منها) خلاف جماعة من الإمامية الروافض الذين جوزوا في القرآن الزيادة والنقصان، وقالوا: أنّه كان على عهد رسول الله (ص) اضعاف ما هو موجود فيما بيننا، وحتى قالوا: ان سورة الاحزاب كانت بحمل جمل، وأنّه قد زيد فيه ونقص وغير وحرف، وما أتوا في ذلك إلا من جهة الملاحدة الذين أخرجوهم من الدين من حيث لا يعلمون (٢٤).

نلاحظ كيف يهاجم شيعة أهل البيت (عليهم السلام) ويتهمهم هذه التهمة الفضيعة اعتماداً على أكذوبة نسبها إليهم من دون تحرّج ولا تحقيق، رغم مواقف وتصريحات علماء الشيعة منذ القديم على نفي التحريف، خاصة الزيادة التي أجمعوا على نفيها، بل ان ما نسبته للشيعة من وحي خياله المريض نجده موجوداً لدى بعض علماء السنّة، يروونه عن عمر بن الخطاب على ما أخرجه الطبراني عنه "القرآن ألف ألف حرف، فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين" (٢٥). وهذا الرقم يعني ضياع أكثر من ثلثي القرآن - على ما قيل -.

وأما النقيصة في سورة الأحزاب فقد نسبوها الى أبي بن كعب - على ما رواه أحمد بن حنبل - وصحّح ابن حزم النسبة الى أبي بن كعب معتبراً الإسناد إليه كالشمس لا مغمز فيه (٢٦).

وروى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: "كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن" (٢٧) إذن كان احري بالقاضي عبد الجبار أن ينسب الخروج عن الدين لغير الشيعة بدلاً من ان يفتري عليهم.

والغريب ان مرض العصبية والعمه عن رؤية الحقيقة الواضحة بقيت تلاحق بعض الكتاب المعروفين في العصر الحديث رغم وضوح ورسوخ أسس البحث العلمي الذي لا يسمح بنسبة قول لشخص من دون الرجوع للمصدر الأصلي، فضلاً عما اذا كانت النسبة لفئة عريضة من العلماء المنتشرة مؤلفاتهم في بقاع المعمورة.

فوجد الكاتب المصري مصطفى الرافي يقع فريسة للتعصب الأعمى فيقول: "أما الرافضة - أخزاهم الله - فكانوا يزعمون ان القرآن بدّل وغير، وزيد فيه ونقص منه وحرّف عن مواضعه وان الامّة فعلت ذلك بالسنن أيضاً. وكل هذا من مزاعم شيخهم وعالمهم هشام بن الحكم لأسباب لا محل لشرحها هنا، وتابعوه عليها جهلاً وحماقة" (٢٨).

من يصدّق ان كاتباً وأديباً معروفاً يجري على قلمه هذا السباب وهذه الأكاذيب؟ لولا أنّها العصبية التي تعمي وتصم! (إن شر الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون) (٢٩).

وقد قدّم هؤلاء خدمة كبيرة لبعض المستشرقين في مساعهم للطعن في الإسلام ورموزه، ومنها التشكيك في سلامة القرآن الكريم مستغلين ما ينسبه امثال الباقلاني وابن حزم والقاضي عبدالجبار المعتزلي والرافي وغيرهم من القول بالتحريف للشيعة، ويضيفون إليه أباطيل أخرى ليستنتجوا عدم سلامة النص القرآني. يقول المستشرق الشهير "اجنتس جولد زيهر" في مفتتح كتابه "مذاهب التفسير الإسلامي": فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً على انه نص منزل أو موحى به يقدم نصّه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن (٣٠).

وقال في موضع آخر من كلامه: ويسود الميل عند الشيعة - على وجه العموم - الى ان القرآن الكامل الذي أنزله الله كان أطول كثيراً من القرآن المتداول في جميع الأيدي... انهم يعتقدون من سورة أنّها كانت تعدل سورة البقرة المشتملة على ٢٨٦ آية، وسورة النور كانت تحتوي على أكثر من ١٠٠ آية وسورة الحجر كانت ١٩٠ آية.

ولأجل أن يدعم فكرته الخبيثة تلك يجعل محور دراسته عن كتب التفسير الشيعية كتابين أحدهما ينتهج نهج التفسير بالمأثور هو التفسير المعروف بـ "تفسير القمي" المنسوب الى علي بن إبراهيم القمي (ت: ٣٢٩).

وثانيهما: تفسير يتخذ منهج التأويل الصوفي، وهو كتاب "بيان السعادة في مقامات العبادة".

ولأجل أن تتضح الحقيقة سوف نتحدث - بإيجاز - عن هذين الكتابين.

"الدرس الرابع والثلاثون"

أمّا التفسير المتداول المنسوب للقمي ففيه خلط واضطراب. وقد قيل أنّه تليفق من املاءاته على تلميذه أبي الفضل العباس بن محمد بن القاسم، وما رواه التلميذ نفسه بسنده الخاص عن أبي الجارود - زياد بن المنذر السرحوب (ت: ١٥٠) - وعن مشايخه، بل ربّما يبدو ان صاحب التفسير المطبوع حالياً ليس هو أبا الفضل العباس، لأنّ التفسير يبتدئ بقوله "حدثني أبو الفضل العباس بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر (عليه السلام) قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم...".

فبالإضافة لعدم وجود ذكر للعباس بن محمد في الأصول الرجالية، لا يعرف الشخص الذي يحدث عنه.

وبعد هذا التوضيح نعرف أنّه لا يمكن الاعتماد على هذا التفسير المطبوع (٣١). وأنّ محتواه لا يعبر عن رأي الشيعة الإمامية.

وأما كتاب "بيان السعادة في مقامات العبادة" فمؤلفه قطب من أقطاب الصوفية، وهو سلطان محمد بن حيدر البيدختي الكنابادي، زعيم فرقة "نعمة الله" الملقب - في الطريقة - بسلطان علي شاه، كان من مواليد سنة (١٢١٥ هـ. ق) وقد فرغ من تأليفه عام (١٣١١) وطبع الكتاب لأول مرة عام ١٣١٤. ونسخ الكتاب مبذولة يجدها الطالب في عامة المكتبات (٣٢).

لكن هذا المستشرق - الباحث الدقيق والأمين! - لأجل أن يعطي قيمة وأهمية لموضوع بحثه حول هذا الكتاب زعم ان تأليف الكتاب تم عام (٣١١ هـ = ٩٢٣ م) ليرجعه الى بدايات القرن الرابع الهجري، ولكي تنطلي لعبته هذه حرف اسم المؤلف الى سلطان محمد بن حجر البجختي، حتى لا يفتضح بمراجعة كتب تراجم الرجال حول اسم المؤلف (٣٣).

مرحباً وعجباً لهذه الأمانة العلمية!!

وليت الأمر اقتصر على هذا المستشرق، بينما نجد كاتباً (مسلماً) هو الشيخ خالد عبدالرحمن العكي - المدرّس بدائرة الافتاء العام بدمشق - يرتكب نفس الأخطاء الفضيعة تقليداً وتبعياً لهذا المستشرق من دون بصيرة. فإنّه - بعد ان ينتقد الاتجاه الشيعي في التفسير - يذكر انّ اقدم تفسير شيعي هو تفسير جابر الجعفي المتوفى سنة ١٢٨، ثم يجيء تفسير "بيان السعادة في مقام العبادة" للسلطان محمد بن حجر البجختي وقد انتهى منه سنة ٣١١، وتفسير القمي في القرن الرابع (٣٤).

ولا يهمنّا الآن التعقيب على باقي كلامه بعد أن عرفنا وزنه العلمي.

ثم نختم تعليقنا على ما نسبته هؤلاء الجهلة والحاقدون لشيعة أهل البيت (عليهم السلام) فنقول: بأنهم مع اعترافهم بكون مؤلف الكتاب من الصوفية كيف يعتبرون رأيه معبراً عن رأي الشيعة، مع وضوح أن الذوق الصوفي لا يعبر عن أصحاب المذهب

الذي ينتمي إليه صاحبه الصوفي سواء كان سنياً أم شيعياً. وهذا أمر يعرفه الجميع، لا يجدر بمن يرى نفسه كاتباً أو باحثاً أن يفوته ذلك، لكنه التعصب الذي يعمي ويصم! (٣٥).

إذن عرفنا الرأي السائد بين علماء الشيعة في نفي التحريف عن القرآن زيادة ونقيصة على مرّ العصور المتتالية، لكن في عهد قريب التزم بعض المحدثين بفكرة النقيصة في القرآن معتمدين على ظواهر بعض الأخبار المروية في المصادر الحديثية، والتي لم يعمل على طبقتها جلّ علماء الشيعة خلال العصور المختلفة. ونلاحظ في طريقة هؤلاء - شأن غيرهم من أهل الحديث - إلغاءهم دور العقل وابتعادهم عن التحقيق والتنقيح في الأخبار، حتى ذكر بعضهم أنّ "ماتعارض فيه محض العقل والنقل من غير تأييد بالنقل فهذا لا نرجح فيه العقل بل نعمل بالنقل" (٣٦).

وجرى على هذا المنوال المحدث النوري الحسين بن محمد تقي (١٢٥٤ - ١٣٢٠هـ) حيث ألف كتاباً لأثبات التحريف - بمعنى نقص القرآن الموجود - سمّاه "فصل الخطاب في تحريف الكتاب". وقد واجهه العلماء المعاصرون له ومن بعده بالرفض والنكير، وألفوا كتاباً في ردّ ما اعتمده من الأدلة على ذلك ومناقشتها.

يحدث السيد هبة الدين الشهرستاني - حيث كان طالباً في الحوزة العلمية بسامراء في عهد مرجعية الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي - في رسالة بعثها تقرّياً لرسالة "البرهان" التي ألفها الميرزا مهدي البروجردي. في مدينة قم المشرفة (عام: ١٣٧٣هـ. ق) يقول السيد الشهرستاني في رسالته: كم أنت شاكر مولاك إذ أولاك بنعمة هذا التأليف المنيف، لعصمة المصحف الشريف عن وصمة التحريف، تلك العقيدة الصحيحة التي أنست بها منذ الصغر أيام مكوثي في سامراء - مسقط رأسي - حيث تمركز العلم والدين تحت لواء الإمام الشيرازي الكبير، فكنت أراها تمولج ثائرة على نزيلها المحدث النوري بشأن تأليفه كتاب "فصل الخطاب" فلا ندخل مجلساً في الحوزة العلمية إلا ونسمع الضجة والعجة ضد الكتاب ومؤلفه وناشره يسلقونه بالأسنة حداد... (٣٧).

وممن كتب في رد المحدث النوري معاصره الفقيه الشيخ محمود بن أبي القاسم الشهير بالمعرب الطهراني (١٣١٣) في رسالة قيمة سماها "كشف الارتباب في عدم تحريف الكتاب" فرغ منها في (١٧ ج ٢ عام ١٣٠٢) تقرب من اربعة آلاف بيت - من الشعر - في ٣٠٠ صفحة مما ادى الى تراجع الشيخ النوري عن رأيه بعض الشيء، فقام بتأليف رسالة اخرى فارسية - فرغ منها في محرم ١٣٠٣ - بصدد اجابة الشيخ الطهراني، وتوجيه ما يقصد من التحريف، وكان يقول: لا ارضى عن الذي يطالع (فصل الخطاب) أن يترك النظر في الرسالة الجوابية على (كشف الارتباب). وكان يوصي كل من كانت عنده نسخة من (فصل الخطاب) أن يضمّ إليه تلك الرسالة، فإنها بمنزلة المتمم لذلك الكتاب والكاشف عن مقصود مؤلفه (٣٨).

يقول الشيخ آغا بزرك الطهراني: سمعت شيخي النوري يقول: اني حاولت في هذا الكتاب اثبات ان الموجود بين الدفتين كذلك، باق على ما كان عليه في أول جمعه كذلك في عصر عثمان، ولم يطرأ عليه تغيير وتبديل كما وقع في سائر الكتب، فكان حريّاً بأن يسمى (فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب) فتسميته بهذا الاسم - اي فصل الخطاب في تحريف الكتاب -

الذي يحملها الناس على خلاف مرادي، خطأ في التسمية ولكني لم أرد ما يحملونه عليه، بل مرادي اسقاط بعض الوحي المنزل الإلهي وإن شئت فسمّه "القول الفاصل في اسقاط بعض الوحي النازل" (٣٩).

على كل حال عمّت حالة الرفض - لرأي النوري - المراكز الشيعية في تلك الفترة وما بعدها الى يومنا هذا، كما اشرنا الى ذلك عند ذكر العلماء الأعلام الذين رفضوا فكرة التحريف بطبقاتهم المختلفة. فمن الظلم الفاحش نسبة التحريف لشيعه أهل البيت (عليهم السلام) مع هذا الموقف العام الرفض، بينما نجد أن كلمات وآراء غيرهم أقرب الى ادعاء التحريف، كما اوضحناه.

محاولات يائسة لتحريف القرآن

لقد استهدف أعداء الإسلام القرآن الكريم بأساليب مختلفة، وبعد أن فشلت محاولاتهم في الطعن فيه والتقليل من شأنه لتشكيك المسلمين بكتابهم وابعادهم عنه، عمدوا الى التدخل المباشر في التلاعب بآيات القرآن الكريم وتحريفه، ففي أيلول عام ١٩٦٠م أفادت انباء القاهرة ان (اسرائيل) قد قامت بطبع مائة ألف نسخة من القرآن الكريم، وقد ادخلت عليها التحريف، وذلك بإحداث اكثر من ألف خطأ مطبعي ولفظي متعمد في طبعة محرّفة للقرآن، وقد تم توزيع هذه النسخ المحرّفة في جملة من البلدان الآسيوية والافريقية، كالمغرب وغانا وغينيا ومالي ودول أخرى، وقد اكتشفت سفارة الجمهورية العربية المتحدة في المغرب هذه المحاولة الأثيمة فأشعرت بذلك السلطات في القاهرة، وبعثت إليها ببعض النسخ المحرّفة.

ومن جملة ما تضمنته هذه النسخ من فقرات التحريف:

ألف: حذف الآيتين التاليتين من القرآن الكريم - حيث منع تدريسهما في مدارس العرب والمسلمين في الأرض المحتلة - (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبّ المقسطين * إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون) (٤٠).

ب: حذف كلمة "غير" لينقلب المعنى عكسياً من قوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) (٤١).

ج: حذف كلمتي "ليست" من الآية الكريمة (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) (٤٢).

د: ابدال عبارة (والله عزيزٌ حكيم) بعبارة "والله غفور رحيم" من قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيزٌ حكيم) (٤٣) (٤٤).

وما زلنا بين حين وآخر نسمع عن طباعة جديدة محرّفة لكتاب الله الكريم وأساليب دنيئة أخرى يروم من خلالها الأعداء إطفاء نور الله وتشويه معالم تنزيله (والله منمُّ نوره ولو كره الكافرون) (٤٥).

الأسئلة

- ١ - ما هي العلوم التي يحتاجها الدارس المتخصّص لفهم القرآن الكريم؟
- ٢ - اذكر ثلاثة آراء في توجيه معنى النزول الدفعي للقرآن.
- ٣ - اذكر المعاني الأربعة للتحريف.
- ٤ - اذكر شاهدين على ان المقصود من التحريف الوارد في بعض النصوص التحريف في المعنى.
- ٥ - اذكر ثلاثة شواهد على ردّ ادعاء وجود اسماء بعض الأئمة ضمن النص القرآني.
- ٦ - كيف تعالج ظاهر بعض النصوص التي يبدو منها وقوع التحريف في سورة الفاتحة والجمعة؟
- ٧ - ما هو موقف الرأي العام الشيعي من التحريف؟

"الدرس الخامس والثلاثون"

التفسير في اللغة: الإيضاح والإبانة.

قال الفيروزآبادي: الفسر الابانة وكشف المغطى كالتفسير(٤٦).

وقال ابن منظور: "الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"(٤٧).

وأما علم تفسير القرآن فقد عرفه أبو حيان بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها واحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"(٤٨).

وقد اهتمّ الباحثون في علوم القرآن، وكذلك المفسرون في التفريق بين التفسير والتأويل. ويفترض الرجوع الى اللغة أولاً لمعرفة المعنى اللغوي للتأويل والمعنى الاصطلاحي لهم فيه، ثم بحث الفرق بينهما...

فالتأويل في اللغة مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال في القاموس: آل إليه أولاً ومآلاً رجع... ثم قال: وأول الكلام تأويلاً وتأويله تدبره وقدره وفسره(٤٩).

فجعل التأويل بمعنى التفسير كأنه باعتبار أن المؤول - اي المفسر - يُرجع اللفظ الى معناه.

أما في الاصطلاح فقد قيل ان ما هو المقصود عند السلف غير ما هو المقصود عند المتأخرين، قال محمد حسين الذهبي: التأويل عند السلف له معنيان:

احدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أم خالفه فيكون التأويل والتفسير - على هذا - مترادفين، وهذا ما عناه مجاهد من قوله: ان العلماء يعلمون تأويله، يعني القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، وبقوله: اختلف أهل التأويل في هذه الآية" ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به.. فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا هو نفس طلوعها.

المعنى الثالث: التأويل عند المتأخرين من المتفهمة والمتكلمة والمحدثّة والمتصوفة... هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح - أي الظاهر - إلى المعنى المرجوح لدليل يقتضيه (٥٠).

والصحيح ان التأويل لا يشترط فيه وجود الدليل او القرينة على المعنى المرجوح دائماً، ولذلك يطلق التأويل على التفسير بالباطن مع أنه خال عن الدليل غالباً، اذن التأويل بهذا المعنى يطلق على حمل اللفظ على غير المعنى الظاهر فيه ولو من دون دلالة على ذلك، نعم ربما تكون هناك ادلة او قرائن خفية يعرفها العارف بالتأويل، يكون هذا هو المعنى الثالث للتأويل.

المعنى الرابع: حكمة ومغزى بعض الأفعال مما يخفى على الناس عامة، كما في قضية الخضر (عليه السلام) مع النبي موسى (عليه السلام) (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً) (٥١).

وأما التفسير فقد شاع استعماله في كلمات العلماء والمفسرين في معنيين..

١ - مطلق حمل اللفظ على المعنى، سواء كان ظاهراً فيه أم لم يكن، وسواء كانت هناك قرينة عليه أم لا. وبهذا المعنى يسمون حمل اللفظ على المعنى الباطن تفسيراً. فيقولون عنه: انه تفسير بالباطن.

٢ - خصوص حمل اللفظ على المعنى الظاهر منه، - الذي قد يخفى على البعض - وان كان سبب هذا الظهور التأمل والتعمّن في نفس الكلام أو القرينة المحيطة بالكلام. فيكون التفسير - بهذا المعنى - في مقابل (التأويل) الذي هو حمل اللفظ على غير المعنى الظاهر، وهو اخص من التفسير بالمعنى الأول.

"الدرس السادس والثلاثون"

الاتجاهات العامة في التفسير

اختلفت اتجاهات المفسرين في تفاسيرهم من عدة اعتبارات، منها..

١ - طبيعة المصدر الذي يعتمدونه في التفسير..

٢ - المنهج الذي ينتهجونه في التفسير.

وسوف نتحدث عن كل واحد من هذين الاعتبارين واختلاف التفاسير بحسبها ضمن فصول..

(الفصل الأول)

اختلاف التفاسير بحسب المصدر المعتمد في التفسير

تختلف التفاسير بحسب طبيعة المصدر العام الذي تعتمده في تفسير آيات القرآن الكريم، ويمكن ان نلاحظ فيها هذه الأقسام:

١ - التفسير بالمأثور.

٢ - التفسير بالرأي.

٣ - التفسير الإشاري.

٤ - تفسير القرآن بالقرآن.

١ - التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور يراد منه تفسير القرآن اعتماداً على ما ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) (٥٢) أو الائمة (عليهم السلام) - عند شيعة أهل البيت(عليهم السلام) - أو الصحابة - لدى الجمهور -، ويعممه بعض مفسريهم منهم الى المروي عن التابعين.

أ: التفسير بالمأثور لدى الجمهور

وتلاحظ فيه نقاط الضعف التالية:

١ - اعتمادهم على التفسير المروي عن الصحابة والتابعين مع وضوح أن قول الصحابة فضلاً عن التابعين يفقد الحجية والاعتبار، فهم كسائر المسلمين يحتمل قولهم وفهمهم للخطأ، ولذلك اختلفت مواقفهم و آراؤهم، بما في ذلك تفسير القرآن فكيف يمكننا الاعتماد على آرائهم وتفسيرهم؟

وقد تنبّه لذلك الدكتور صبحي الصالح حيث قال: بيد أن اطلاق بعضهم أن تفسير الصحابة له حكم المرفوع اطلاق غير جيّد، لأن الصحابة اجتهدوا في تفسير القرآن، واختلفوا في بعض المسائل والفروع، كما رأينا بعضهم يروي الإسرائيليات عن أهل الكتاب (٥٣).

ويقوى الاشكال بالنسبة إلى التابعين فإنهم كثيراً ما كانوا يعتمدون على اجتهادهم وفهمهم من دون الرجوع الى الرواية عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). قال محمد حسين الذهبي: وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من اقوال هؤلاء التابعين في التفسير قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل الى علمهم شيء فيها عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أو عن أحد من الصحابة(٥٤).

وحكي عن أبي حنيفة قوله: ما جاء عن الرسول (ص) فعلى العين والرأس، وما جاء عن الصحابي تخيرنا منه، وأما ما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال"(٥٥) وعُرف عنه انه يعتبر الحديث المروي عن التابعين - الذي يسمى الحديث المقطوع - ضعيفاً لا يحتجّ به(٥٦).

٢ - كثرة الوضع في التفسير بالمأثور

يلاحظ ان التفسير بالمأثور تعرّض لمحنة الوضع والكذب من قبل الرواة على نطاق واسع، سواء في ذلك ما يروى كذباً عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذا نرى كثرة الأساطير والخرافات. وقد اعترف بهذا محمد حسين الذهبي وأحمد امين حيث قال: "ان القصاص والوضّاع زادوا في هذا النوع من التفسير كثيراً، ونسبوا الى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس انه قال: سئل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) عن قوله تعالى: (والقناطر المقنطرة) (٥٧) قال القنطار ألف اوقية. وما أخرجه أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): القنطار اثنا عشر ألف اوقية"(٥٨).

ولذا نجد احمد بن حنبل - رغم ما عرف عنه من كثرة الروايات - يقول: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي"، قال أحمد أمين "وظاهر هذه الجملة ان الأحاديث التي وردت في التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر - كما قال بعضهم - انه يريد الأحاديث المرفوعة الى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في التفسير" (٥٩).

رغم ان البعض حاول أن يحمل كلامه على ان الغالب ليس لها اسانيد صحاح متصلة(٦٠).

ولم يختص الكذب والوضع على الأحاديث المنسوبة للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بل نجده على نطاق واسع بالنسبة لأحاديث التفسير المنسوبة للصحابة، فهذا ابن عباس رغم العدد الهائل المروي عنه في التفسير فإن ابن الحكم يقول سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيهه بمائة حديث(٦١).

ومما وضع على لسان ابن عباس روايات فضائل سور القرآن. فقد حكي عن المختصر للاصول: أنه قيل لأبي عصمة نوح بن ابي مريم من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟ فقال: رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق فوضعتُ هذه الأحاديث حُسبةً".

ونظير ذلك ما روي عن أبي بن كعب في فضائل سور القرآن "قال الصاغاني: وضعه رجل من عبادان"(٦٢).

"الدرس السابع والثلاثون"

٣ - الإسرائيليات

وهي الآراء التي تسربت من اليهود والنصارى فاعتمدها بعض المسلمين في تفسير القرآن الكريم، وأما سميت بالاسرائيليات تغليباً لجانب التأثير اليهودي على جانب التأثير النصراني "فان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر امره فكثرت النقل عنه، وذلك لكثرة اهله وظهور امرهم وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام الى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم"(٦٣).

الملاحظ أن دخول الاسرائيليات في التفسير بدأ منذ عهد الصحابة كما اعترف به عدد من المفسرين الباحثين.

قال محمد حسين الذهبي: وسبق لنا القول بأن الرجوع الى أهل الكتاب كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي اذا مرّ على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً الى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء نفر الذين دخلوا الى الإسلام وحملوا الى أهله ما معهم من ثقافة دينية فألقوا إليهم من الأخبار والقصص الدينية(٦٤).

وقد أخذ هذا من ابن خلدون حيث اشار إليه في مقدمته(٦٥).

وقد ادعى محمد حسين الذهبي أنهم لم يقبلوا كل شيء منهم، بل حتى ما اخذوه منهم لم يعتمدوا عليه، اعتماداً على ما رووه عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (أما بالله وما انزل إلينا وما أنزل إليكم) الآية(٦٦).

لكنه لم يدع رأيه هذا بشواهد، بل الشواهد على خلافه حيث شحنت كتب التفاسير بكثير من الروايات التفسيرية المنسوبة للصحابة المليئة بالأفكار الإسرائيلية، ولو كان الصحابة قد تحرّجوا من أخذ هذه الأفكار الاسرائيلية لظهر اثر هذا التوقف على من بعدهم فلم يعتمدوا على قبول الاسرائيليات على هذا النطاق الواسع، على ان مكانة كعب الأحمار وعبدالله بن سلام في روايات التفسير ظاهرة لكل من راجعها.

وقد بلغ تغلغل الأفكار الاسرائيلية في روايات الحديث حتى دُعم ذلك بأحاديث نسبوها للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، مثل ما رواه البخاري عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، من كذب عليّ فيلتبوا مقعده من النار"(٦٧).

ويبدو من بعض النصوص المروية في مصادر الجمهور أن قضية الأخذ من أهل الكتاب بدرت من بعض الصحابة في زمن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مما أدى الى غضب الرسول، فقد اخرج احمد وابن ابي شيبة والبخاري من حديث جابر بن عبدالله: "ان عمر بن الخطاب اتى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بكتاب اصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب، فقال: "أمتهم وكون - اي أمتحبرون - فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جنتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني"(٦٨).

ونلاحظ مدى تدمر النبي و غضبه من مراجعة أهل الكتاب وسؤالهم، كما أنّ النص يوحي ان عمر و ربما غيره من الصحابة أيضاً محتارون في الموقف بين ما يسمعون من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وما يسمعون من أهل الكتاب المناقض لذلك.

ومن ذلك ما روي أنه أتى للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بكتاب في كنف فقال: "كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عمّا جاءهم به نبيهم الى نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم". فأنزل الله عزوجل (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم...) (٦٩) (٧٠).

وقد روى ان عبدالله بن عمرو بن العاص اصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يحدث منهما(٧١).

وهذا يكشف عن حالة سائدة ومقبولة بين الصحابة بحيث لم يتخرج عبدالله بن عمرو بن العاص من رواية هذا العدد الكبير من هذه الكتب اليهودية.

وعندما نراجع التابعين في تفاسيرهم نجد أن الطامة اكبر وأن الخرق يتسع كثيراً.

قال محمد حسين الذهبي: اما التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن اهل الكتاب فكثرت على عهدهم الروايات الاسرائيلية في التفسير... فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفي سنة (١٥٠هـ) الذي نسبه ابو حاتم الى انه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم، بل ونجد بعض المفسرين في هذا العصر - عصر التابعين - يصل بهم الأمر الى أن يصلوا بين القرآن وما يتعلق بالاسلام في مستقبله، فيشروا القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل والتنبؤ بما يطويه الغيب، فهذا مقاتل بن سليمان... (٧٢).

وقد قدّمنا رأي ابن خلدون حول انتشار الاسرائيليات، وانه قد عدّ كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وامثالهم من التابعين أوائل من سرّب الاسرائيليات الى تفسير القرآن.

ويبدو ان قوله "امثالهم" يشمل مثل عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريح التابعي.

وقد طعن بعض الباحثين مثل احمد امين(٧٣) ورشيد رضا في كعب الاحبار ووهب بن منبه، قال رشيد رضا: - بعد أن اشار إلى طعن ابن تيمية فيهما - فكيف لو تبين له - ابن تيمية - ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما الى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حوّمت حوله(٧٤).

(١) البحار: ٢٦٠/٩٢، وتوجد هذه النصوص في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا(عليه السلام) وغيرهما.

(٢) الكافي: ٢ / ٢٨٩.

(٣) تفسير القمي: ٧٤.

(٤) تفسير فرات بن إبراهيم: ١٨.

(٥) الكافي: ٨ / ٣٨١.

(٦) سورة المائدة: ٦٧.

(٧) الكافي: ٨ / ٣٨١.

(٨) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٩) الكافي: ٣ / ٥٠٢ باب منع الزكاة حديث ١، ويراجع حديث ١٠.

(١٠) علوم القرآن عند المفسرين: ١ / ٤٨٧.

(١١) يراجع كتاب صيانة القرآن من التحريف: ١٥٩، وما بعدها.

(١٢) الاتقان: ٣ / ٧٢.

(١٣) الاتقان: ١ / ١٩٨.

(١٤) راجع صيانة القرآن من التحريف: ١٥٧، وما بعدها ولاحظ ما قدّمناه في موضوع نسخ التلاوة وفي بحث التحريف.

(١٥) اعتقادات الإمامية - المطبوع مع شرح الباب الحادي عشر: ٩٣ - ٩٤.

(١٦) أوائل المقالات: ٥٤ - ٥٦.

(١٧) وهم فئة من أبناء العامة. قال الجرجاني: "وسميت الحشوية حشوية، لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله (ص) قال: "وجميع الحشوية يقولون بالجبر و التشبيه وتوصيفه (تعالى) بالنفس واليد والسمع والبصر. وقالوا: ان كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجة أيّ كانت الوسطة" بحوث في الملل والنحل، للسبحاني: ١ / ١٢٤.

(١٨) مجمع البيان: ١ / ١٥، ضمن الفن الخامس.

(١٩) التبيان: ١ / ٣، طبعة النجف.

(٢٠) جاء ذلك في جواب محفوظ على سؤال وجّه لسماحته بهذا الخصوص.

(٢١) تهذيب الأصول تقرير الشيخ جعفر السبحاني: ٢ / ١٦٥.

(٢٢) نكت الانتصار: ٩٥ - ١٠٣، و ٢٣٩ - ٢٤٢.

(٢٣) الفصل في الملل والنحل: ١ / ١٨٢.

(٢٤) شرح الأصول الخمسة: ٦٠١.

(٢٥) الاتقان: ١ / ٢٤٢، الطبعة الثانية مطبعة أمير.

(٢٦) راجع المحلى: ١١ / ٢٣.

(٢٧) دراسات قرآنية: ١٦٢، نقلاً عن الاتقان للسيوطي: ٢ / ٤٠.

(٢٨) اعجاز القرآن: ١٤٢، هامش رقم ٢.

(٢٩) سورة الانفال: ٢٢.

(٣٠) مذاهب التفسير الإسلامي: ٤.

(٣١) يراجع كليات في علم الرجال: ٣٠٩ - ٣٢٠ وصيانة القرآن من التحريف: ٢٣٠ - ٢٢٩.

(٣٢) صيانة القرآن من التحريف: ٩٦.

(٣٣) من غير المعقول ان نفترض انها اخطاء تجمعت صدفة من دون قصد، إذ كيف يسمح باحث لنفسه أن يجعل محور دراسته كتاباً لمؤلف ما من دون مراجعة كتب التراجم حولهما، ثم كيف يقع في هذين الالتباسين الواضحين، وكيف لا يميز باحث بين كتاب مؤلف في القرن الرابع عشر وطبيعة مؤلفات القرن الرابع؟!.

(٣٤) أصول التفسير وقواعده: ٢٤٩ - ٢٥٠ (ط بيروت) ويراجع أيضاً صيانة القرآن من التحريف: ٩٣ - ١٠٠.

(٣٥) والمؤسف ان ذيول هذه الفكرة السخيفة ما تزال تلقي بظلالها على بعض الشخصيات في هذا العصر الذي انفتحت فيه الشعوب والثقافات على بعضها، حتى ان علال الفاسي - من الشخصيات المعاصرة في المغرب العربي - عندما زار إيران كان يهرع عند تجواله في مدينة (قم) الى ملاحظة نسخ القرآن الموجودة التي يراها، وعندما زار سماحة السيد محمد حسين الطباطبائي أخذ يلاحظ نسخ القرآن الموجودة في مكتبته، فقال له السيد: أيها الاستاذ كأنك تبحث عن (قرآن الشيعة)، لأنني لاحظتك تفحص نسخ القرآن الموجودة أينما حللت. فقال الفاسي: أحسنت، بلى لعن الله الاستعمار الفرنسي والمستشرقين الغربيين حيث أشاعوا في شمال أفريقيا ان قرآن الشيعة يختلف عن قرآن أهل السنة، وانا عندما حللت في ايران لاحظت عشرات النسخ من القرآن في طهران ومشهد وقم في المكتبات ومحلات بيع الكتب ودققت فيها فلم أجد أدنى تفاوت بينها مع باقي نسخ القرآن، والآن عرفت مدى فاعلية خطة هؤلاء - الغربيين - في التفريق بين المسلمين. (يراجع طبقات مفسرين شيعه ٨٧/١ - ٨٨).

ويجدر بنا أن نتساءل هل ان هذه الخطة الاستعمارية جاءت من فراغ؟ أو ليس تعصب بعض المسلمين وافتراءاتهم خلقت الأرضية المناسبة لهم؟!

وهل يليق (بالعلماء والمتقنين) - وهم على اعتاب القرن الحادي والعشرين - أن تنظلي عليهم هذه الخطة وما تحمله من فكرة سخيفة، وهم يشاهدون عشرات الملايين من شيعة آل البيت (عليهم السلام) منتشرين في البلاد التي يحكمها غير الشيعة،

فكيف لم يستطع هؤلاء الحكام - بما يمتلكونه من إمكانيات - الكشف عن هذا القرآن المزعوم، خاصة ان شيعة أهل البيت (عليهم السلام) يقفون في مناطق عديدة من العالم في مواجهة قوى الكفر العالمي بقدراتها الهائلة وبمسعاها الحثيث في تمزيق شمل المسلمين وتشتيتهم!!؟

والغريب انه بينما يتهم شيعة أهل البيت (عليهم السلام) بهذه الفرية الباطلة نجد بعض بلاد المغرب العربي تلتزم مصحفاً على قراءة (ورش) يختلف جزئياً عن المصحف المنتشر بين المسلمين بقراءة عاصم، والذي منع تداوله في كثير من البلدان الإسلامية، ومع ذلك لا يُتهمون بالتحريف واختلاق مصحف آخر، وما أدري كم كان حجم التهم على اتباع أهل البيت (عليهم السلام) لو كان حكام دول المغرب العربي منتسبين إليهم!!؟

(٣٦) الأنوار النعمانية: ٣ / ١٣٣.

(٣٧) البرهان: ١٤٣ - ١٤٤.

(٣٨) صيانة القرآن من التحريف: ١١٥ - ١١٦.

(٣٩) الذريعة: ١٠ / ٢٢٠ - ٢٢١، و ١٦ / ٢٣١ - ٢٣٢، و ١٨ / ٩.

(٤٠) سورة الممتحنة: ٨ - ٩.

(٤١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٤٢) سورة البقرة: ١١٣.

(٤٣) سورة المائدة: ٣٨.

(٤٤) يراجع كتاب دراسات قرآنية: ١٧٤ - ١٧٥.

(٤٥) سورة الصف: ٨.

(٤٦) القاموس المحيط: ٢ / ١١٠.

(٤٧) لسان العرب: ٦: ٣٦١.

(٤٨) مباحث في علوم القرآن: ٣٢٤، تأليف مناع القطان.

(٤٩) القاموس: ٣ / ٣٣١.

(٥٠) التفسير والمفسرون: ١ / ١٧ - ١٨.

(٥١) سورة الكهف: ٨٢.

(٥٢) جمع السيوطي كل الأحاديث المسندة - من طرق أهل السنة - الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في التفسير، راجع الاتقان ٤/٢٤٥ - ٢٩٨ وسوف تلاحظ قلتها.

(٥٣) علوم الحديث ومصطلحه: ٢٠٩، قد نسب ذلك الى الدكتور أحمد محمد شاكر في كتابه الباعث الحثيث: ٥٠.

(٥٤) التفسير والمفسرون: ١ / ١٠٠.

(٥٥) علوم الحديث ومصطلحه: ٢١٠.

(٥٦) يراجع المصدر نفسه.

(٥٧) سورة آل عمران: ١٤.

(٥٨) فجر الإسلام: ٤٢٥.

(٥٩) ضحى الإسلام: ٢ / ١٤١.

(٦٠) راجع الاتقان: ٢ / ١٧٨، ومقدمة في أصول التفسير: ٩٥.

(٦١) الاتقان: ٢ / ١٨٩.

(٦٢) يراجع تذكرة الموضوعات: ٨٢.

(٦٣) التفسير والمفسرون: ١ / ١٤٥.

(٦٤) التفسير والمفسرون: ١ / ١٦٩.

(٦٥) راجع مناهل العرفان: ٢ / ٢٩.

(٦٦) كذا بلفظ البخاري في الجامع الصحيح: ٤ / ٣٧٤. لكن لا توجد آية قرآنية بهذا اللفظ.

(٦٧) الجامع الصحيح: ٤ / ١٤٥، طبع دار الفكر، بيروت.

(٦٨) التفسير والمفسرون: ١ / ١٧٢ - ١٧٣.

(٦٩) سورة العنكبوت: ٥١.

(٧٠) جامع بيان العلم وفضله: ٢ / ٥٠.

(٧١) التفسير والمفسرون: ١ / ١٧٥.

(٧٢) التفسير والمفسرون: ١ / ١٧٦.

(٧٣) راجع فجر الإسلام: ١٩٨.

(٧٤) تفسير المنار: ١ / ٩.

"الدرس الثامن والثلاثون"

٤ - حذف الإسناد أو ضعفه

ويعتبر هذا سبباً رئيسياً لضعف التفسير بالمأثور، حيث اختلطت النصوص الصحيحة مع غيرها من الموضوعات.

وقد حفلت كتب التفسير بالمأثور بروايات أشخاص مطعون فيهم، ومن شواهد ذلك أنّ الضحاك الذي نقلت عنه اقوال ذكر انه رواها عن ابن عباس قد قال عنه نقاد الرجال: انه لم يلق ابن عباس، وبذا تكون روايته غير مسلحة، وقالوا: ان في جميع ما رواه نظراً.

وانّ السدي الكبير الذي روي له كثير قالوا فيه: انه ضعيف وشتام (ورمي بالتشيع) وان كان بعضهم يقول عنه: انه مستقيم الحديث صادق.

وان محمد بن السائب الكلبى - وإن رضيه بعضهم - فقد قال بعض آخر: إنه ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، كما اتهمه بعضهم بالوضع.

قال محمد بن طاهر الهندي - بعد أن ذكر أن أشهر كتب التفسير كتابان: أحدهما للكلبي والآخر لمقاتل بن سليمان -: "وقد قال أحمد في تفسير الكلبي: من أوله الى آخره كذب لا يحل النظر فيه"(١).

أما مقاتل بن سليمان - الذي قالوا عنه: ان الناس عيال عليه في التفسير - فقد ذكروا انه يروي عن مجاهد ولم يسمع منه شيئاً، ويروي عن الضحاك ولم يسمع منه شيئاً، لأن الضحاك قد مات قبل ان يولد مقاتل بأربع سنوات(٢).

ويحاول بعض الباحثين ادعاء أنّ انتشار حذف الأسانيد حدث في التفاسير المؤلفة بعد عصر التابعين بفترة طويلة حتى قال محمد حسين الذهبي " ... لم يعرف عن الصحابة انهم كانوا يُسألون عن الاسناد، لما عُرفوا به جميعاً من العدالة والأمانة..."

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثاً إلا إذا جاء بسنده وثبت لهم عدالة رواته،... ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير ودون ما جمع لديه من ذلك، فألفت تفاسير تجمع اقوال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) في التفسير وأقوال الصحابة والتابعين مع ذكر الاسانيد كتفسير سفيان بن عيينه ووكيع بن الجراح وغيرهما ممن تقدم ذكرهم، ثم جاء بعد هؤلاء اقوام ألفوا في التفسير فاختصروا الاسانيد ونقلوا الأقوال غير معزوة لقائلها...(٣).

ب: التفسير بالمأثور لدى الشيعة

وتلاحظ فيه النقاط التالية:

١- قلة التفاسير الجامعة المستوعبة لكل الكتاب العزيز. فنلاحظ ان تفسير فرات الكوفي وتفسير علي ابن ابراهيم وتفسير العياشي غير مستوعبة للآيات القرآنية.

٢- فقدان النسخ الأصلية لبعض هذه التفاسير، مثل تفسير العياشي، حيث عمد بعض النساخ إلى حذف أسانيد الروايات، وقد انتشرت هذه النسخة وفقدت النسخة الأصلية المسندة، وبذلك فقد الكتاب كثيراً من قيمته العلمية. كما ان الجزء الثاني من هذا التفسير مفقود.

وكذلك التفسير الموجود المنسوب إلى علي بن ابراهيم القمي فإن كثيراً من الباحثين يشكّون في مطابقته للنسخة الأصلية للتفسير.

٣- ضعف السند في الكثير من النصوص التفسيرية.

٤- عدم وصول بعض التفاسير بطريق معتبر، فمثلاً نجد أنّ الرواية المحفوظة لتفسير علي بن ابراهيم القمي تنحصر بالعباس بن محمد الذي لم يُترجم في الكتب الرجالية.

من أشهر التفاسير بالمأثور

١ - تفسير فرات بن ابراهيم بن فرات الكوفي(ت حوالي: ٣٠٧).

٢ - تفسير العياشي. لمحمد بن مسعود بن محمد بن عياش التميمي (عاش في اواخر القرن الثالث).

٣ - جامع البيان في تفسير القرآن. لمحمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠).

٤ - تفسير علي بن ابراهيم القمي (ت: ٣٢٩).

٥ - بحر العلوم. أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت: ٣٧٣ - ٣٧٥).

٦ - الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٧).

٧ - التبيان في تفسير القرآن. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠).

٨ - معالم التنزيل. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠).

٩ - مجمع البيان في تفسير القرآن. أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٣٨).

١٠ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد بن عبدالحق بن غالب بن عطية (٤٨١ - ٥٤٦).

١١ - تفسير القرآن العظيم. اسماعيل بن عمرو بن كثير (ت: ٧٧٤).

١٢ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن. أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الثعالبي (ت: ٨٧٦).

١٣ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور. جلال الدين بن أبي بكر بن محمد السيوطي (٨٤٩ - ٩١١).

"الدرس التاسع والثلاثون"

٢ - التفسير بالرأي

والمقصود منه هنا أن يعتمد الانسان في تفسير الآيات القرآنية على رأيه المجرّد من خلال قناعاته الشخصية المسبقة فيوجه أو يؤوّل الآيات القرآنية بما ينسجم معها. وقد تضمنت النصوص الكثيرة النهي ن هذا التفسير والتحذير منه.

وهو غير التفسير الاعباطي(٤) الذي يسلكه بعض المفسرين على طريقة القصاصين، لجذب العامة وخديعتهم.

وقد يطلق التفسير بالرأي في كلمات بعض العلماء على كل جهد عقلي واجتهادي لتفسير الآيات القرآنية، وهو غير التفسير بالرأي المنهي عنه الذي أشرنا إليه.

وعلى كل حال هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية في التفسير - أشار إليها العلامة الطباطبائي - وهي:

١ - التفسير الذي يعتمد على قناعات الانسان وآرائه المسبقة، وهذا هو التفسير بالرأي المنهي عنه، ونلاحظ ان كثيراً من المفسرين وقعوا في هذا المأزق حيث اقحموا قناعاتهم المسبقة في تفسير الآيات، وحملوا الآيات الكريمة آراءهم الخاصة وتوجّهاتهم. فالمعتزلي يفسر الآية بما ينسجم مع منهجه الاعتزالي، والأشعري كذلك، والفيلسوف يجرّ الآيات الى دعم آرائه الفلسفية، والعرفاء والمتصوفة حولوا القرآن الى رموز واشارات وفق أذواقهم وهكذا... حتى ان المنبهرين بالتطور الهائل للعلوم المادية جعلوا من القرآن كتاب فهرسة للإشارة للنظريات العلمية المختلفة... ففقدت تفاسيرهم روعة القرآن وحيويّته ودوره الفاعل في هداية الناس وارشادهم لمقتضيات الفطرة السليمة والمثل العليا في الأخلاق والسلوك ورسم الخطوط التوجيهية العامة للبشرية مجتمعات وافراداً.

٢ - تفسير الآيات من خلال الجمود على الروايات الواردة عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة المعصومين(عليهم السلام) - عند الشيعة - او الصحابة والتابعين - عند الجمهور-.

وهذه هي الطريقة التي كانت متبعة لدى الطبقات الأولى من المفسرين بشكل عام.

ويلاحظ على هذه الاتجاه التفسيري انه يحدّد دور القرآن الكريم ويحصره في زوايا ضيقة، فيفقد حيويّته وفاعليّته في حياة الأجيال المتعاقبة، خصوصاً عند الجمهور حيث لا تتجاوز الأحاديث النبوية في التفسير مائتين وخمسين حديثاً - مع ما في سند اكثرها من ضعف ومضمون بعضها من اضطراب وتهافت -.

ورغم وجود أحاديث مروية عن الأئمة(عليهم السلام) اكثر من هذا الرقم بكثير لدى الشيعة الإمامية بحكم طول الفترة الزمنية التي عاشها الائمة(عليهم السلام) إلا ان الروايات المذكورة لا تفي بالكشف عن الدور الحقيقي للقرآن الكريم، وان التقيد بموارد هذه النصوص يعيّب القرآن الكريم عن الواقع المعاصر ويحدّ من دوره وحيويّته.

على ان كثيراً من الآيات لم ترد في تفسيرها نصوص من طرق الجمهور ولا من طرق شيعة أهل البيت(عليهم السلام).

٣ - تفسير القرآن بالاعتماد على التدبر فيه، واستنطاق الآية الكريمة وملاحظة الآيات الأخرى المرتبطة بها، مع الرجوع للنصوص الواردة في المقام.

ويتطلب هذا النحو من التفسير:

أ: مستوى علمياً رفيعاً في العلوم المختلفة المرتبطة بالمواضيع التي يتناولها القرآن الكريم، بالإضافة الى دقة المفسر ووعيه الاجتماعي العام.

ب: اصالة وعمق الثقافة الإسلامية للمفسر في مختلف الجوانب العقائدية والاجتماعية وغيرها، وإحاطته بالمصادر الإسلامية الأصيلة المتمثلة بالرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، لأن القرآن الكريم وأهل البيت - كما جاء في حديث الثقلين المعروف - هما الثقلان اللذان خلفهما الرسول الكريم للأمة الإسلامية وانهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.

ج: الإحاطة والمراجعة الشاملة والدقيقة لكل ما يمكن أن يساهم في تفسير الآية، وعدم التسرع في التفسير، إلا بعد التثبت والوضوح التام، ومع عدمه فيُطرح الرأي كمجرد احتمال قابل للنقاش والدراسة من دون نسبته للقرآن.

وهذا النمط من التفسير هو الذي ينسجم مع النصوص الكثيرة التي حثت على الرجوع للقرآن الكريم واستنطاقه، وانه لا يخلق على مرّ العصور والأيام... ففي كلام للإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة: "وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه وبيت لا تهدم أركانه وعز لا تهزم أعوانه" (٥).

وفي كلام آخر له (عليه السلام) أيضاً: "ثم انزل عليه الكتاب نوراً لا تظفا مصابيح وسراجاً لا يخبو توقده... فهو معدن الايمان وبحبوحته - أي وسطه - وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون - أي المستقون - ومناهل لا يغيضها الواردون... جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء... إلخ" (٦).

وهناك نصوص كثيرة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام) تشير الى ذلك، هذا بالإضافة الى العديد من الآيات القرآنية الداعية للتدبر والتأمل في القرآن الكريم.

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (٧).

(كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) (٨).

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٩).

٣ - التفسير الإشاري

وقد عرفه الزرقاني بأنه تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوّف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً (١٠).

وقد تعرّض الذهبي الى نمط آخر من التفسير سماه التفسير الصوفي النظري، لكن قال: "ولم نسمع بأن أحداً ألف في التفسير الصوفي النظري كتاباً خاصاً يتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشاري، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب الى ابن عربي وكتاب الفتوحات المكية له وكتاب الفصوص له ايضاً، كما يوجد بعض من ذلك في كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب" (١١).

ونحن سوف نتحدّث بإيجاز عن هذا التفسير، وعن التفسير بالباطن الذي يشترك معه في الخط العام، فنقول: قد دأب على هذا التفسير فريقان هما:

أ: المتصوفة وأهل (العرفان) حيث ذكروا في تفاسيرهم معاني غريبة للقرآن الكريم، حيث اعتبروا الآيات القرآنية رموزاً مشيرة الى هذه المعاني الخفية.

ب: بعض المفسرين الآخرين الذين يعتمدون نصوصاً على اساس أنها تبين بواطن القرآن.

وبما ان هذه المعاني المذكورة في هذا النوع من التفسير بعيدة عن ظهور الألفاظ القرآنية ودلالاتها العرفية فلذلك لا يمكن الاعتماد عليها إلا اذا توفرت مجموعة من الشروط، منها..

١ - أن تكون منسوبة الى الراسخين في العلم كالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة(عليهم السلام).

٢ - أن تكون أسانيدھا صحيحة ومعتمدة.

٣ - أن تكون دلالتها واضحة لا لبس فيها.

فاجتماع هذه الشروط يمكن الاعتماد على هذه التفاسير، ومن دون ذلك لا يمكن الوثوق بها.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنّ ورود هذه النصوص - حتى على فرض الوثوق بها - في التفسير الاشاري قد يكون من باب مجرد التطبيق من دون حصر المعاني القرآنية بها فلا يمنع من الأخذ بظهورات الآيات القرآنية وفق قواعد الفهم العام، لأنها هي التي اشار إليها القرآن الكريم نفسه حيث دعا إلى التدبّر والتمعّن فيه، وكذلك النصوص الكثيرة الأخرى الواردة في الحث على التأمل والتدبّر فيه، وانه (لا يخلق عن كثرة رد) وانه (لا يشيع منه العلماء) وغير ذلك... فإن هذه الآيات والنصوص لا تشير إلى تلك المعاني الرمزية الاشارية وإنما تشير إلى الظهورات القرآنية المستنبطة من جانب العلماء المؤهلين العارفين بمصادر الثقافة الإسلامية الأصيلة.

ونشير هنا إلى بعض التفاسير الاشارية المعروفة..

١ - تفسير النيسابوري، هذا التفسير لا يقتصر على التفسير الاشاري، وإنما يتعرّض إليه بعد أن يفسّر الآيات القرآنية على ظاهر معانيها، ويذكر المعنى الاشاري بعنوان التأويل.

قال مثلاً في قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة).

... التأويل: ذبح البقرة اشارة الى ذبح النفس البهيمية فإنّ في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهو الجهاد الأكبر: موتوا قبل أن تموتوا...

اقتلوني يا ثقاتي *** انّ في قتلي مماتي

وحياتي في مماتي *** ومماتي في حياتي

٢ - تفسير التستري: تأليف ابي محمد سهل بن عبدالله التستري (ت: ٣٨٣).

فذكر مثلاً في تفسير البسملّة:

الباء بهاء الله عزوجل، والسين سناء الله عزوجل، والميم مجد الله عزوجل، والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الاسماء كلها... الخ.

٣ - تفسير ابن عربي، تأليف محيي الدين بن عربي، الحاتمي الصوفي الفقيه المحدث، عبدالله محمد بن علي... (٥٦٠ - ٦٣٨) (١٢).

قال في تفسير قوله تعالى: (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) (١٣).

ولسليمان الريح اي سخرنا لسليمان العقل العملي، والمتمكن على عرش النفس في المصدر، ريح الهوى (عاصفة) في هبوطها (تجري بأمره) مطيعة له (الى الأرض) ارض البدن المتدرب بالطاعة والأدب (التي باركنا فيها) بتميز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة.

٤ - تفسير روح المعاني، تأليف شهاب الدين محمد الألوسي البغدادي مفتي بغداد. (ت: ١٢٧٠).

٤ - تفسير القرآن بالقرآن

وقد نظر له بعض المفسرين، أبرزهم العلامة الطباطبائي، فقد قال: "ثانيهما: أن نفس القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونعرفها بالخواص التي تتضمنها الآيات، كما قال تعالى: (إنا أنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...) الآية. وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) الآية، وقال تعالى: (إنا أنزلنا إليكم نوراً مبيناً) الآية.

وكيف يكون القرآن هدىً وبيناً وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه، وهو أشد الاحتياج! (١٤).

وهذا الذي ذكره (رحمه الله) وإن كان جديراً بالملاحظة والاهتمام لكنه لا يعني الاكتفاء بالقرآن في التفسير، فإن الجمع بين الآيات الكريمة وإن كان يفتح أفقاً واسعاً للمفسر والباحث عادةً، لكنه لا يكفي لتفسير كل الآيات القرآنية، خاصةً أن كثيراً من المواضع القرآنية لم يتكرر ذكرها في آيات أخرى حتى يمكن فهمها من خلال الجمع بين الآيات.

ومن راجع تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي يجد خروجه أو - على الأقل - عدم اقتصاره على هذا المنهج.

والذي نراه أنه ينبغي للمفسر أن يستوعب ويحيط بكل ما يساهم في فهم الآيات القرآنية وتفسيرها، من الآيات القرآنية والنصوص التفسيرية المعتمدة ويعتمد العمق والتمعن في دراسته للآيات الكريمة.

"الدرس الحادي والأربعون"

(الفصل الثاني)

مناهج التفسير

عندما نراجع كتب التفسير نجد أنها تسير على وفق التسلسل الذي جُمع عليه القرآن الكريم، فهي جميعاً تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس. ويمكن ان نسمي هذا المنهج بالتفسير الترتيبي ويسميه البعض التفسير التجزيئي.

"وفي تاريخ متأخر من تاريخ علم التفسير اخذت تنمو بوادر منهج جديد في التفسير أو البحث القرآني يقوم على اساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية من خلال عرضها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم، فحين نريد ان نعرف رأي القرآن الكريم في الألوهية، يستعرض هذا المنهج الجديد الآيات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي جميع المواضيع القرآنية سواء في ذلك ما يتعلق بأصل وجود الإله أو بصفاته وحدوده ومن خلال هذا العرض العام والمقارنة بين الآيات وحدودها يستكشف النظرية القرآنية في الإله" (١٥).

ونظير هذا الموقف يتخذه في كل المفاهيم والنظريات أو بعض الظواهر القرآنية، ويسمى هذا بالتفسير الموضوعي.

ولأجل أن نكون على بصيرة كافية في فهم التفسير الموضوعي نشير الى المعاني الثلاثة للموضوعية التي ذكرها الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) الذي اهتم كثيراً بالتفسير الموضوعي ودعا اليه بقوة. فقد ذكر (قدس سره) ان الموضوعية تستعمل هنا في ثلاثة معان:

١ - الموضوعية في مقابل الذاتية "والموضوعية بهذا المعنى عبارة عن الامانة والاستقامة في البحث" (١٦).

٢ - الموضوعية بمعنى ان يبدأ الباحث من (الموضوع) الذي هو الواقع، ويعود الى القرآن الكريم لمعرفة ما يطرحه القرآن تجاه هذا الواقع، فيركز المفسر نظره على موضوع من المواضيع ويستوعب ما اثارته ابحاث الانسان وما قدّمه الفكر الانساني من حلول وما طرحه التطبيق التاريخي من اسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني... ويبدأ معه حواراً، فالمفسر يسأل والقرآن يجيب، وهو يستهدف من ذلك ان يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح (١٧).

وقد يسمى هذا بالمنهج التوحيدي باعتبار أنه يوحد بين التجربة البشرية والقرآن الكريم، لا بمعنى انه يحمل التجربة البشرية على القرآن بل بمعنى انه يوحد بينهما في سياق واحد لكي يستخرج - نتيجة هذا السياق - المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة او المقولة الفكرية" (١٨).

٣ - الموضوعية بمعنى ما ينسب الى الموضوع الذي يختاره المفسر ليجمع الآيات التي تشترك في التعرض لذلك الموضوع فيفسرها ويحاول استنتاج نظرية قرآنية فيما يخص ذلك الموضوع "ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجاً توحيدياً أيضاً باعتبار انه يوحد بين هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد" (١٩).

وعندما نرجع الى هذه المعاني الثلاثة للموضوعية يتضح ان المعنى الأول خارج عن البحث، لأنها حالة مفروضة أو مطلوبة من كل باحث ولا تختص بمنهج دون منهج.

وقد اعتمد الشيخ السبحاني المنهج الموضوعي بالمعنى الثالث من خلال عدة دراسات قرآنية له (٢٠).

بينما تبني الشهيد الصدر (قدس سره) منهج التفسير الموضوعي - الموضوعية بالمعنى الثاني - اعتماداً على ثلاثة مرجحات رئيسية ذكرها لهذا المنهج على منهج التفسير الترتيبي - المعهود بين المفسرين - .

ونوكل ملاحظة هذه المرجحات، وما يمكن أن يثار حولها من مناقشات الى فرصة أخرى ودراسة أعمق.

"الدرس الثاني والأربعون"

طبقات المفسرين

قبل التعرض لطبقات المفسرين يمكننا اعتبار القرآن الكريم نفسه والرسول العظيم نفسه من المفسرين للقرآن، إذ وردت آيات عديدة تصلح ان تكون مفسرة لآيات قرآنية أخرى، لذلك انطلقت فكرة تفسير القرآن بالقرآن.

وكذلك الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث دلت نصوص وروايات كثيرة انه كان يفسر ما يحتاج الى التفسير من الآيات النازلة عليه، أو يبين المصاديق البارزة لمعاني بعض الآيات، مثل ما ورد عنه(صلى الله عليه وآله وسلم) متواتراً انه كان يشير الى بيت علي وفاطمة ويصرح بأنهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وكذلك في تفسير آية التصديق عندما تصدق الإمام(عليه السلام) بخاتمه، وكذلك آيات التصديق في سورة الإنسان وغير ذلك.

ولا غرابة في ذلك، لأنّ الذي ينزل القرآن عليه هداية للناس من الطبيعي أن يتصدى لتفسيره وبيان معانيه، وربما تكون في بعض الآيات الكريمة إشارة الى ذلك (...وأُنزِلنا إليك الذِّكر لتبين للنَّاس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢١).

ولكن السؤال الذي يطرح هنا عن حدود التفسير الذي تصدّى له الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فهل شمل القرآن كله تفسيراً شاملاً لكل جوانب آياته او اقتصر على بعض الآيات وبما يتطلبه الظرف والموقف؟

ويوجد اتجاهان في الإجابة على هذا السؤال، حيث يرى بعض الباحثين ان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يفسر إلا بعض الآيات حسب ما اقتضته الظروف ويستشهدون على ذلك بأمرين..

أولهما: قلّة ما ورد عن الصحابة من التفسير بالمأثور، لذلك نجد الصحابة يحثرون في تفسير الآيات القرآنية مما يكشف عن قلّة ما تلقوه من الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في التفسير.

ثانيهما: بعض الروايات الدالة على ذلك، منها ما أخرجه البزار عن عائشة من ان رسول الله ما كان يفسر إلا آياً بعدد(٢٢).

بالإضافة الى شواهد أخرى يستشهد بها أنصار هذا الرأي.

بينما يرى الفريق الآخر أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قد قام بعملية تفسير شاملة للقرآن، ويمكن الاستشهاد لهذا الفريق بدليلين:

أحدهما: بعض الآيات الكريمة التي نسبت هذا الدور للرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) مثل قوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ينلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) (٢٣)، وقوله تعالى: (... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون) (٢٤).

ثانيهما: طبيعة دور القرآن ومكانته بين المسلمين، فمن الواضح ان القرآن الكريم ليس مجرد كتاب نُزِّل ليتبرك به المسلمون او يحفظوا ألفاظه ليقرؤوها في طقوس معينة، بل هو الكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات الى النور، فهو إمامهم وهاديهم الى سواء السبيل، (إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (٢٥) وان الآيات القرآنية كانت تنزل لتوجيه المسلمين بالاتجاه الذي ترسمه، وتحدد المواقف في المناسبات التي تنزل فيها، فلا معنى لفرض جهل المسلمين بمعاني وتفسير الآيات القرآنية المتتالية مع شعورهم بضرورة اتباع النهج المرسوم فيه والالتزام بمحتوياته وتعاليمه، وبما ان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) هو العارف بتفسيره فلا بدّ أن يكون قد بيّنه لأصحابه على نطاق واسع شامل.

وأما قلة المأثور عن الصحابة من التفسير بالمأثور فقد يرجع الى انعدام التدوين - ولو بسبب منعه بعد وفاة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) - من ناحية، وانشغال الصحابة بالحروب وابتعادهم عن الجو العلمي من ناحية ثانية.

ونحن أمام هذين الاتجاهين المتباينين في تحديد دور الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في تفسير القرآن الكريم - يمكن أن نخلص الى نتيجة تلنقي جزئياً مع كلا الاتجاهين، ولتوضيح ذلك نشير الى عدّة نقاط جديرة بالملاحظة وهي..

أ: ان القرآن الكريم دعا المسلمين الى التدبّر في آياته (كتاب أنزلناه إليك مباركاً ليدبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب) (٢٦).

ب: انّ الناس - بمن فيهم الصحابة - يختلفون في قدراتهم الذهنية ومستوياتهم الثقافية والعلمية.

ج: ما ورد ان للقرآن الكريم ظهراً وبطناً، وكذا ما ورد عن الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان عمق القرآن الكريم مثل قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): "ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنفسي عجائبه" (٢٧).

د: ان القرآن الكريم حملّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مسألة بيانه للناس، كما في قوله تعالى: (وانزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلمهم يتفكرون) (٢٨).

بعد ملاحظة هذه النقاط يمكننا أن نخلص الى أن مستوى عاديّاً من الفهم لجلّ الآيات القرآنية كان منتشرّاً بين الصحابة أو كثير منهم، يستند بعضه الى بيان من الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبعضه الى الفهم الذاتي باعتبارهم اهل اللغة وضمن الوسط الذي نزل فيه القرآن الكريم.

أما الفهم الدقيق لمعانيه العميقة - كما ورد في الحديث عنه(صلى الله عليه وآله وسلم): "ظاهره انيق وباطنه عميق" - فلم يبيّنه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) على نطاق واسع وشامل، لعدم استيعاب المجتمع آنذاك لها، وعدم توفر الظروف المحيط به - خاصة مع ملاحظة ضعف المستوى الثقافي وانشغال المسلمين بالحروب والتحديات الأخرى - ولذا ورد أنه لا يشيع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه.

نعم، هناك كثير من النصوص والشواهد الدالة على أنه(صلى الله عليه وآله وسلم) قد خصَّ علياً(عليه السلام) بهذا الفهم المتميّز، وان كانت آلية هذا التعليم غير معروفة، فهل كان بشكل تفصيلي او باعطائه مفاتيح الفهم الدقيق للآيات؟ هناك روايات مُختلفة المضمون، ليس هذا محل بحثها.

"الدرس الثالث والأربعون"

(١) طبقات المفسرين لدى الجمهور

الطبقة الأولى من المفسرين: الصحابة

قال السيوطي في الإتيان: "اشتهر من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وابي بن كعب وزيد بن ثابت و ابو موسى الاشعري وعبدالله بن الزبير، اما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة قليلة جداً.. انتهى. قيل: وقد كثرت الروايات ايضاً عن ابن مسعود(٢٩).

اما الإمام علي(عليه السلام) فهو غني عن التعريف حتى عند غير شيعته، وقد رواوا عنه قوله: "والله ما نزلت آية إلا وعلمت فيم أنزلت وأين أنزلت، ان ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً"(٣٠).

واما ابن عباس فهو تلميذ الامام علي فلا غرابة في ضلوعه في التفسير. وقد حكى عنه قوله: "ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب"(٣١).

إلا ان الروايات المروية في مصادر الجمهور عن ابن عباس وعن الإمام علي(عليه السلام) حيث كانت مرسلة أو ضعيفة الاسناد فلا يمكن الاعتماد عليها، وقد حكى عن الشافعي قوله: "لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث"(٣٢).

فإذا كان ما وصل عن الإمام علي وتلميذه ابن عباس - على كثرة ما يروى عنهما - بهذه الدرجة من الضعف وعدم الاعتماد، فكيف بباقي الصحابة، لذلك لا يمكن الاعتماد على ما يروى عن الصحابة إلا القليل جداً الذي وصل بطريق معتبر السالم من الاضطراب، والخالي من شواهد الوضع.

وقد أشرنا الى ذلك عند التعرض للتفسير بالمأثور ونقاط الضعف فيه.

الطبقة الثانية من المفسرين: التابعون

وقد قسموهم الى ثلاث طبقات، طبقة أهل مكة، وطبقة أهل المدينة، وطبقة أهل العراق.

١ - طبقة أهل مكة

واشهرهم مجاهد (ت: ١٠٠ - ١٠٣) قيل: فقد كان اوثق من روى عن ابن عباس، ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من اقطاب العلم وائمة الدين(٣٣).

وسعيد بن جبیر (قتله الحجاج، عام: ٩٤) وعكرمة مولى ابن عباس (ت: ١٠٥) وطاووس بن كيسان اليماني (ت: ١٠٦) وعطاء بن أبي رباح (ت: ١١٤).

٢ - طبقة أهل المدينة

ومنهم أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت: ٩٠)، روى عن أبي بن كعب. وعطية بن سعيد العوفي (ت: ١١١). ومحمد بن كعب القرظي (ت: ١١٧) كان من بني قريظة، وزيد بن أسلم (ت: ١٣٦) قيل أخذ عنه مالك بن أنس.

٣ - طبقة أهل العراق

منهم.. مسروق بن الأجدع كان بالكوفة (قيل توفي سنة ٦٣). والحسن البصري (قيل: توفي: ١١٠) وقتادة بن دعامة (ت: ١١٧) كان بالبصرة وعطاء بن أبي مسلم الخراساني (ت: ١٣٣) ومرة الهذاني الكوفي.

وقد اختلفوا في طريقتهم في التفسير، قال السيوطي: وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة (٣٤).

بينما خالف البعض في ذلك، قال الزرقاني: يلاحظ على ما روي عن التابعين اعتبارات مهمة تثير الطعن فيه وتوجه النقد إليه:

منها: أنهم لم يشاهدوا عهد النبوة ولم ينتشروا بأنوار الرسول، فيغلب على الظن أن ما يروى عنهم في تفسير القرآن، إنما هو من قبيل الرأي فليس له قوة المرفوع - أي المسند - إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنها: أنه يندر فيه الإسناد الصحيح.

ومنها: اشتماله على إسرائيليات (٣٥).

وقد تقدّم البحث عن مدى القيمة العلمية لما يروى من التفسير عن الصحابة والتابعين عند الحديث عن التفسير بالمأثور.

"الدرس الرابع والأربعون"

الطبقة الثالثة من المفسرين

وهم تلاميذ الطبقة الثانية، مثل ربيع بن أنس وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وأبي صالح الكلبى - النسابة والمفسر في القرن الثاني - وأمثالهم.

وكانت طريقتهم في التفسير إما نسبة تفسير الآيات إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الصحابة أو يذكرون معنى الآية من دون نسبه إلى أحد.

ونلاحظ أنّ المفسرين المتأخرين يعاملون هذه الأقوال معاملة الروايات النبوية، ويعتبرونها روايات موقوفة (٣٦).

ويطلق على الطبقتين الثانية والثالثة من المفسرين مصطلح قدماء المفسرين (٣٧).

الطبقة الرابعة من المفسرين

وهم أول طبقة من المفسرين الذين ألفوا في التفسير.

مثل شعبة بن الحجاج البصري - ينتمي للطبقة الثانية من التابعين (ت: سنة ١٦٠ هـ) وسفيان بن عيينة المكي - من الطبقة الثانية من التابعين (ت: سنة ١٩٧ هـ) ووكيعة بن الجراح الكوفي (ت: ١٩٧ هـ).

وعبد بن حميد - ينتمي للطبقة الثانية من التابعين عاش في القرن الثاني -.

ومن هذه الطبقة ابن جرير الطبري، وهو محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التفسير المعروف - المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

وطريقة هؤلاء في التفسير أنهم يوردون أقوال الصحابة والتابعين بصيغة روايات مسندة إليهم، ويتجنبون الاستقلالية في التفسير، إلا أنّ ابن جرير في تفسيره قد يرجح بين الآراء المختلفة.

وهذه الطبقة هي أولى طبقات المتأخرين من المفسرين (٣٨).

الطبقة الخامسة من المفسرين

قيل: وهم الذين حذفوا أسانيد الروايات، واكتفوا بنسبة الآراء للأشخاص من دون إسناد، وقد اعتبر السيوطي وغيره ان الالتباس بين الصحيح وغيره قد بدأ من هؤلاء بسبب حذف الأسانيد، ولذا تعرّضت رواياتهم للطعن والتجريح.

لكن الصحيح - كما قدّمنا - ان الاضطراب والدس والخرافات والإسرائيليات قد بدأت قبل هذه الطبقة، حيث نجد أن الروايات المسندة التي ذُكرت قبلهم مشتملة على هذه التناقضات والإسرائيليات والقصص الخرافية وغيرها.

وقد حكى (٣٩) عن أحمد بن حنبل - الذي هو قبل هذه الطبقة - قوله: "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي".

وأشار ابن خلدون الى ان العرب حيث لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، فإذا رغبوا في معرفة ما ترغّب فيه النفوس البشرية من أسباب التكوين وبدء الخليقة وأسرار الوجود كانوا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم... وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وعبدالله بن سلام فامتلت التفسير من المنقولات عنهم، وتلقّيت بالقبول، لما كان لهم من المكانة السامية، ولكن الراسخين في العلم قد تحرّوا الصحة وزيّفوا ما لم يتوافر أدلة على صحته (٤٠).

وهذا يؤكد أن اختلاط السقيم بالصحيح قد بدأ منذ عهد الصحابة.

الطبقة السادسة من المفسّرين ومن بعدهم

وهم المفسّرون الذين ظهوروا بعد نضج العلوم المختلفة او انتشارها بين المسلمين، وتخصّص الكثير منهم فيها، فركّز كلُّ عالم متخصص في فنّه على مجال اختصاصه في تفسيره.

فالنحوي ركّز على أبحاث علم النحو مثل الزجاج (ت: ٣١٠هـ) وأبي الحسن الواحدي (ت: ٤٦٨) وأبي حيان التوحيدي - اندلسي نحوي وقارئ ومفسّر (ت: ٧٤٥).

وعالم البلاغة ركّز على ابحاث الفصاحة والبلاغة مثل الزمخشري (ت: ٥٣٨) في الكشف.

والمتمكّن توسّع في أبحاث علم الكلام مثل فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسيره الكبير.

والعارف ضمّن تفسيره مباحث العرفان مثل محيي الدين بن عربي - (ت: ٦٣٨هـ).

والأخباري اقتصر على الأخبار مثل أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٦ - ٤٢٧).

والفقيه اهتمّ بالأبحاث الفقهية مثل محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: ٦٦٨ هـ).

وجمع بعض المفسرين في تفسيره بين علوم مختلفة مثل نظام الدين حسن القمي النيسابوري (ت: ٧٢٨ هـ) في تفسيره المسمّى تفسير النيسابوري. والشيخ إسماعيل حقي (ت: ١١٣٧ هـ) في تفسيره روح البيان. وشهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (ت: ١٢٧٠) في تفسيره روح المعاني.

"الدرس الخامس والأربعون"

٢ (طبقات المفسرين من الشيعة الإمامية وطريقتهم

يختلف الاتجاه التفسيري عند الشيعة عن المنحى الذي عليه التفسير لدى الجمهور، إذ إنّ شيعة أهل البيت (عليهم السلام) لا يرون موضوعية لأقوال الصحابة والتابعين ما دامت غير مسندة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبالمقابل يعتمدون آراء أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتفسيرهم، باعتبارهم الحجة وأحد الثقلين اللذين خلفهما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أمته.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نرتب طبقاتهم كما يلي..

الطبقة الأولى:

الذين رووا روايات التفسير عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليهم السلام) فأودعوا في أصولهم التي ألفوها مشتتة ومتفرقة مثل أبي حمزة الثمالي، و زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الثقفي، ومعروف بن خربوذ، وجريز، و فرات بن إبراهيم الكوفي.

وقد ألف أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار كتاباً في التفسير، وذكر السيد الطباطبائي أنّ طريقة أبي حمزة في التفسير هو النقل عمّن يروي عن المعصوم لا النقل مباشرة، ولذا عدّه من الطبقة الثانية (٤١)، وكذلك فرات الكوفي.

الطبقة الثانية:

وهم الذين لم يرووا عن المعصومين مباشرة، بل كانت رواياتهم عمّن روى عن المعصومين (عليهم السلام) مثل محمد بن مسعود الكوفي العياشي صاحب تفسير العياشي - عاش في النصف الثاني من القرن الثالث قيل توفي: ٣٢٠ - ومن المؤسف ان أحد تلاميذه حذف أسانيد روايات استأذنه الى المعصومين (عليهم السلام) لأجل الاختصار، وانتشرت هذه النسخة وتداولتها الأيدي حتى فقدت النسخة الأصلية المسندة، وبذلك فقد هذا الكتاب الكثير من قيمته العلمية.

ومن هذه الطبقة علي بن إبراهيم القمي - من مشايخ الحديث عاش الى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، وهو صاحب تفسير علي بن إبراهيم - وقد كان دأب هذه الطبقة بشكل عام إسناد الروايات للمعصومين (عليهم السلام). وتجنّب إبداء الرأي في التفسير (٤٢).

ومنهم محمد بن إبراهيم النعماني من أعيان علماء الإمامية ومن تلامذة الكليني - عاش في أوائل القرن الرابع، وقيل أنّه توفي في سنة ٣٦٠ -.

هذا، وقد برز منذ القرن الأول الهجري الكثير من المفسرين الشيعة، وحفظت المكتبة العربية والإسلامية مساهمات تفسيرية قيّمة لمجموعة منهم، نشير إلى بعضهم فيما يلي:

القرن الأول

ميثم التمار (استشهد ٦٠).

سعيد بن جبير (قتله الحجاج ٦٤).

عبدالله بن عباس (ت: ٦٨).

جابر بن عبدالله الأنصاري (ت: ٧٤).

القرن الثاني

طاووس بن كيسان اليماني (ت: ١٠٦).

عطية بن سعيد العوفي (ت: ١١١).

زيد بن علي (الشهيد ١٢١ أو ١٢٢).

أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير (ت: ١٢٧).

جابر بن يزيد الجعفي (ت: ١٢٨).

ابان بن تغلب البكري (ت: ١٤٦).

الفضيل بن يسار البصري (ت: ١٤٧).

هشام بن سالم الجواليقي (الذي كان حياً الى عام ١٤٨).

سليمان بن مهران الأعمش (ت: ١٤٨).

ثابت بن دينار المعروف بأبي حمزة الشمالي (ت: ١٤٨ أو ١٥٠).

محمد بن فرات (ت: حوالي ١٥٠).

محمد بن خالد البرقي (ت: حوالي ١٨٣).

القرن الثالث

يونس بن عبدالرحمن الأسدي (ت: ٢٠٨).

يحيى بن زياد المعروف بالفراء (ت: ٢٠٨).

محمد بن أبي عمير من أصحاب الإمام الكاظم (ت حوالي ٢١٧).

الحسن بن علي بن فضال (ت: ٢٢٤).

محمد بن عيسى بن عبيد المعروف باليقطيني (ت: ٢٢٤).

الحسن بن محبوب (ت: حوالي ٢٢٤).

علي بن مهزيار الأهوازي صاحب الإمام الجواد (ت: بعد ٢٢٩).

أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري (ت: حوالي ٢٣٠).

الفضل بن شاذان النيشابوري (ت: ٢٦٠).

أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت: ٢٧٤ أو ٢٨٠).

سعيد بن عبدالله الأشعري (ت: ٢٩٩ - ٣٠١).

القرن الرابع

علي بن إبراهيم القمي (ت: ٣٠٧).

فراة بن إبراهيم بن فراة الكوفي (ت: حوالي ٣٠٧).

محمد بن مسعود المعروف بالعياشي (ت: ٣٢٠).

علي بن بابويه (ت: ٣٢٩).

محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد (ت: ٣٤٣).

محمد بن إبراهيم بن جعفر المعروف بالنعماني (ت: ٣٦٠).

محمد بن علي بن حسين بن موسى بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت: ٣٨١).

أحمد بن فارس صاحب جامع التأويل في التفسير (ت: ٣٩٥).

القرن الخامس

الشريف الرضي محمد بن الحسين (٣٥٩ - ٤٠٦).

الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٨ - ٤١٣).

الشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦).

أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراكي (ت: ٤٤٩).

أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد المعروف بالنجاشي (٣٧٢ - ٤٥٩).

أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي المعروف بالشيخ الطوسي (٣٥٨ - ٤٦٠) صاحب تفسير التبيان.

الفضل بن الحسن بن الفضل المعروف بالطبرسي صاحب مجمع البيان (٤٦٨ - ٥٤٨).

سيد ضياء الدين بن الرضا الراوندي (ت: ٥٤٩).

قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن حسن الراوندي (ت: ٥٧٣).

محمد بن منصور بن أحمد بن أدريس (٥٤٣ - ٥٩٨).

(١) تذكرة الموضوعات: ٨٢.

(٢) راجع التعريف بالقرآن والحديث، تأليف محمد الزفزاف: ١٧٠ - ١٧١.

(٣) التفسير والمفسرون: ١ / ٢٠٢.

(٤) ومن المؤسف ان هذا (التفسير) - الذي يمكن اعتباره نوعاً من التقوّل والافتراء - كان له أصحابه الذين خدعوا الناس وأوهموهم، ومنهم من أخذ مساحة واسعة في الكتب التفسيرية أيضاً، فقد روي عن مالك بن أنس "انه بلغه ان مقاتلاً جاءه انسان فقال: ان انساناً جاءني فسألني عن لون كلب اصحاب الكهف، فلم أدر ما أقول، فقال له مقاتل: ألا قلت له أبقع، فلو قلت له لم تجد أحداً يردّ عليك" (تهذيب التهذيب: ١٠ / ٣٨٢).

ويسلك هذا المنهج أصحاب الضلالات والبدع لأجل التأثير على اتباعهم واللبس عليهم. ونحن نعرض عن هذا النمط، لأنه ليس تفسيراً في الحقيقة بل هو مجرد أكاذيب وافتراءات.

(٥) تصنيف نهج البلاغة: ٢٠٩.

(٦) تصنيف نهج البلاغة: ٢١٢.

(٧) سورة النساء: ٨٢.

(٨) سورة ص: ٢٩.

(٩) سورة محمد: ٢٤.

(١٠) مناهل العرفان: ٢ / ٨٦، علماً ان هذا الظهور إنما هو بحسب زعمهم.

(١١) التفسير والمفسرون: ٣ / ١٧.

(١٢) يرى الشيخ محمد عبده ان هذا التفسير ليس لابن عربي، وانما هو لعبدالرزاق القاشاني (ت: ٧٣٠) وقد وافقه محمد حسين الذهبي. يراجع التفسير والمفسرون: ٣ / ٦٦ - ٦٧.

(١٣) سورة الأنبياء: ٨١.

(١٤) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ١١.

(١٥) علوم القرآن / للسيد محمد باقر الحكيم: ٣٤٤.

(١٦) المدرسة القرآنية، المحاضرة الثانية: ٢٩.

(١٧) المصدر.

(١٨) يراجع المصدر: ٢٨.

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) طبعت في عشر أجزاء تحت عنوان مفاهيم القرآن، جزء منها في صفات الله تعالى وجزء منها في أهل البيت (عليهم السلام) وجزء منها في المؤمنين وغيرها.

(٢١) سورة النحل: ٤٤.

(٢٢) التفسير والمفسرون: ١ / ٥١.

(٢٣) سورة البقرة: ١٥١.

(٢٤) سورة النحل: ٤٤.

(٢٥) سورة الاسراء: ٩.

(٢٦) سورة ص: ٢٩.

(٢٧) الدارمي: ٢ / ٤٣٥، كتاب فضائل القرآن، يراجع أيضاً صحيح الترمذي: ١١ / ٣٠، والبحار: ٩ / ٧، عن تفسير العياشي.

(٢٨) سورة النحل: ٤٤.

(٢٩) مناهل العرفان: ٢ / ١٨.

(٣٠) تاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٣٩٨، وسائل الشيعة ١ / ٦١.

(٣١) مناهل العرفان: ٢ / ٢١.

(٣٢) الاتقان: ٤ / ٢٣٩.

(٣٣) مناهل العرفان: ٢ / ٢٢ .

(٣٤) الإتيان: ٤ / ٢٤٢ .

(٣٥) مناهل العرفان: ٢ / ٢٥ .

(٣٦) الرواية الموقوفة: هي الرواية التي لم يذكر فيها اسم المروي عنه، فالمتأخرون من مفسري الجمهور يعتبرون أقوال هؤلاء منسوبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الصحابة، وان لم يصرّحوا انفسهم بذلك.

(٣٧) راجع كتاب (قرآن در اسلام): ٧٦ .

(٣٨) يراجع كتاب (قرآن در اسلام): ٧٧ .

(٣٩) مناهل العرفان: ٢ / ٢٨ .

(٤٠) راجع مناهل العرفان: ٢ / ٢٩ .

(٤١) لكن مراجعة النصوص التفسيرية عنه التي جمعت وطبعت أخيراً تؤكد روايته عن المعصوم (عليه السلام) مباشرة. يراجع كتاب (تفسير القرآن الكريم لأبي حمزة ثابت بن دينار الثمالي) أعاد جمعه وتأليفه عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين.

(٤٢) يراجع كتاب (قرآن در اسلام): ٨٣ .

"الدرس السادس والأربعون"

استعراض خاطف لبعض التفاسير المعاصرة

١: التفسير الكاشف تأليف محمد جواد مغنية (المتوفى ١٣٩٩ هـ) وهو سبعة أجزاء.

وقد كتب التفسير بلغة حديثة ميسرة خالية من الغموض - كما دأب المؤلف في باقي كتبه أيضاً - ويتضمن الإشارة الى بعض الأبحاث اللغوية والاعرابية أحياناً، ثم يدخل الى تفسير الآيات مباشرة، ويتطرق أحياناً الى المعاني والأبحاث التي يستوحىها

من الآية فيبحثها ضمن عناوين مستقلة، ورغم بعض الملاحظات حول بعض الآراء الواردة فيه إلا أنه مفيد و جيد وقد لخص الشيخ مغنية اتجاهه في تفسيره ضمن نقاط:

١ - "نظرت الى القرآن على انه في حقيقته وطبيعته كتاب دين وهداية واصلاح وتشريع يهدف قبل كل شيء الى أن يحيا الناس جميعاً حياة تقوم على أسس سليمة يسودها الأمن والعدل ويغمرها الخصب والرفاهية... ولا يعني هذا اني اغفلت الجهات النافعة التي تعرّض لها المفسرون الكبار... بخاصة المشكلات الفلسفية مثل الجبر والاختيار والهدى والضلال، والإمامة، وعصمة الأنبياء والشفاعة والاحباط، ومرتكب الكبيرة وحساب القبر... وما الى ذلك(١).

نظرت الى الإسرائيليات التي جاءت في بعض التفاسير على انها خرافة وأساطير... وايضاً تجاهلت ما جاء من الروايات في أسباب التنزيل إلا قليلاً منها... وأيضاً لم أشغل نفسي والقارئ بذكر العلاقة والمناسبة بين الآيات واتصال بعضها ببعض"(٢).

٢ - اعتمدت - قبل كل شيء - في تفسير الآية وبيان المراد منها على حديث ثبت في سنّة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)... فإذا لم يكن حديث من السنّة اعتمدت ظاهر الآية وسياقها... وإذا وردت آية ثانية في معنى الأولى وكان أبين وأوضح ذكرتهما معاً لغاية التوضيح، لأنّ مصدر القرآن واحد... وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع حكم العقل وبداهته أولت اللفظ بما يتفق مع العقل... وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع إجماع المسلمين في كل عصر ومصر على مسألة فقهية حملت الظاهر على الإجماع..."(٣).

٢: الميزان في تفسير القرآن تأليف: السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفى ١٤٠٢ هـ) وهو تفسير كبير يقع في عشرين جزءاً.

يمتاز هذا التفسير بالعمق والأبحاث الدقيقة ويأتي في مقدمة التفاسير الحديثة، وقد أشار المؤلف في مقدمة تفسيره الى منهجه وأهم ما يركز عليه تفسيره، وذلك:

١ - المعارف المتعلقة بأسماء الله سبحانه وصفاته.

٢ - المعارف المتعلقة بأفعاله تعالى.

٣ - المعارف المتعلقة بالوسائل الواقعة بينه وبين الإنسان كالحُجُب.

واللوح والقلم والعرش والكرسي والبيت المعمور والسماء والأرض... إلخ.

٤ - المعارف المتعلقة بالإنسان قبل الدنيا.

٥ - المعارف المتعلقة بالإنسان في الدنيا كمعرفة تاريخ نوعه ومعرفة نفسه ومعرفة أصول اجتماعه ومعرفة النبوة و... إلخ.

٦ - المعارف المتعلقة بالإنسان بعد الدنيا، وهو البرزخ والمعاد.

٧ - المعارف المتعلقة بالأخلاق الإنسانية، ومن هذا الباب ما يتعلق بمقامات الأولياء في صراط العبودية من الإسلام والإيمان والإحسان... ثم وضعنا في ذيل البيانات متفرقات من أبحاث روائية نورد فيها ما تيسر لنا إيراده من الروايات المنقولة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين... ثم وضعنا أبحاثاً مختلفة فلسفية وعلمية وتاريخية واجتماعية وأخلاقية... إلخ (٤).

ويلاحظ القارئ للميزان ثلاث نقاط هامة..

أ: إن المؤلف لا يتعامل - بشكل عام - مع النصوص الواردة في بيان معاني الآيات على أنها روايات تفسيرية تحدد المعنى القرآني، بل يحملها على بيان مصاديق بارزة لمعاني الآيات فحسب، لأن القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر - كما جاء في الحديث - وهذا ما يسميه المؤلف بالجري والانطباق.

ب: النظرة الشاملة إلى القرآن الكريم بكل آياته وسوره، ومحاولة إرجاع وربط بعضه ببعض، وهذا ما يسميه المؤلف بتفسير القرآن بالقرآن.

ج: اهتمام المؤلف بمعالجة شبهات أعداء الإسلام والمنحرفين، فيذكر البراهين والأدلة المبطللة لها.

هذا، ورغم عمق وأهمية الجهد المبذول في هذا التفسير من مؤلفه المعروف بدقته وجزارة علمه إلا أن الملاحظ تأثر المفسر بقناعاته الفلسفية واتجاهه العرفاني، فتلون تفسيره بذلك، حتى إن من الصعب فهم كثير من أبحاثه لمن لم يكن عنده اطلاع واسع بمدرسة صدر الدين الشيرازي الفلسفية - المعروفة بالحكمة المتعالية - والتي ينتمي إليها السيد الطباطبائي.

تبقى ملاحظة أخيرة حول ضعف الأسلوب والتواء التعبير الذي كتب به التفسير المذكور، لأنّ اللغة العربية هي اللغة الثانية للمفسّر، وليست لغة الأم بالنسبة إليه.

٣: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل تأليف لجنة بإشراف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

وهو من التفاسير الجيدة النافعة للشباب المثقف، وقد كتب بلغة واضحة وميسرة، واشير في مقدمته الى خصائصه ومزاياه والمنهجية التي اتبعها المؤلفون فيه، من خلال النقاط التالية:

١ - لما كان القرآن "كتاب حياة" فإننا لم نركز - في التفسير - على المسائل الأدبية والعرفانية، بل بدلاً من ذلك عالجنا المسائل الحياتية المادية والمعنوية وخاصة المسائل الاجتماعية، وسعينا الى اشباعها بحثاً وتحليلاً، وخاصة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد والمجتمع.

٢ - في ذيل كل آية تناولنا تحت عنوان (وقفات) المسائل المطروحة في الآية بشكل مستقل كالربا والرق وحقوق المرأة وفلسفة الحج و...

٣ - عرّفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القليلة، وأعطينا الأهمية لمعاني الكلمات وأسباب النزول ما له تأثير في الفهم الدقيق لمعنى الآية.

٤ - عرضنا التساؤلات والشبهات والاعتراضات المطروحة باختصار، مثل شبهة الأكل والمأكول والمعراج وتعدد الزوجات... كي لا تبقى أية علامة استفهام عند مطالعة تفسير الآيات.

٥ - أعرضنا عن استعمال المصطلحات المعقدة التي تجعل الكتاب خاصاً بفئة خاصة من القراء (٥).

ورغم أهمية الجهد المبذول في هذا التفسير والعرض الجيد الواضح لمواضيعه، إلا أنّه وبسبب كونه ترجمة لتفسير (نمونة) - المكتوب باللغة الفارسية - لم يخل من ضعف في لغته التي كتب بها، خاصة من خلال تسرّب كثير من المفردات غير الفصيحة فيه.

- ١ - اذكر المعاني الأربعة للتأويل.
- ٢ - اذكر الملاحظات الأربع على منهج التفسير بالمأثور لدى الجمهور.
- ٣ - اذكر الملاحظات الأربع على منهج التفسير بالمأثور لدى الشيعة.
- ٤ - اذكر ثلاثة من أشهر التفاسير بالمأثور الشيعية وثلاثة من أشهر التفاسير بالمأثور لدى العامة.
- ٥ - ما هي الاتجاهات الرئيسية في التفسير؟
- ٦ - ما هي المناهج الرئيسية في التفسير؟
- ٧ - ما هو دور الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في عملية تفسير القرآن؟

"الدرس السابع والأربعون"

المكي والمدني

من الأبحاث المرتبطة بعلوم القرآن والتي اهتمَّ بها المفسِّرون والباحثون البحث عن الآيات المكيّة والمدنية وتمييز كل منهما عن الأخرى، ودراسة خصائص كل من القسمين.

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لابد أن نحدد المقصود من المكي والمدني، حيث ذكرت ثلاثة معانٍ لهما.

أ: ان المقصود بالمكي ما نزل بمكة أو ضواحيها. وبالمدني ما نزل في المدينة أو ضواحيها.

ب: ان المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، قيل: وعليه يحمل قول من قال: "انّ ما صدر في القرآن بلفظ (يا أيّها الناس) فهو مكي، وما صدر فيه بلفظ (يا أيّها الذين آمنوا) فهو مدني" (٦).

ج: انّ المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها وإن كان نزوله بمكة.

ويترجح المعنى الثالث على المعنيين الآخرين من ناحيتين:

الأولى: ان المكي والمدني بالمعنى الثالث يشكل كل آيات القرآن - كما جرى عليه المفسرون - بخلاف المعنيين الآخرين لهما، فالآيات النازلة في غير مكة والمدينة وضواحيهما لا تدخل تحت المكي والمدني بالمعنى الأول، كما ان الآيات التي لا تتضمن خطاباً مثل آيات تمجيد الله سبحانه، وكذلك الآيات التي لا تختص بأهل مكة والمدينة - وما أكثرها - لا تدخل تحت المكي والمدني بالمعنى الثاني، بل حتى الآيات التي تخاطب أهل مكة أو أهل المدينة لا تختص بهم، حيث "انّ القرآن حي لم يمّت وأنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر..." كما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام).

الثانية: ان تمييز الآيات على أساس بقعة نزولها أو المخاطبين بها ليس بالأمر المهم بحيث تترتب على كل من القسمين خصائص تختلف عن خصائص القسم الآخر، بينما تمييز الآيات النازلة قبل الهجرة عن الآيات النازلة بعدها - وهو الأساس المعتمد في المعنى الثالث للمكي والمدني - ربّما تترتب عليه آثار هامّة، حيث يمكن استكشاف خصائص لكل من القسمين تميّزه عن القسم الآخر، باعتبار ان حدث الهجرة المائز بين القسمين ليس قضية هامشية عابرة في مسيرة الرسالة الإسلامية وإنّما هو حدث فاصل وحاسم فيها، إذ كان الإسلام قبلها مجرد تعاليم قيّمة جذبت حولها مجموعة من المؤمنين، بينما تحوّل بعد الهجرة الى كيان متكامل قائم حيث تصدى لبناء دولة وقيادة المجتمع بكل مستلزماته، فمن الطبيعي أن تكون للآيات النازلة بعد الهجرة خصائص تختلف عن تلك التي نزلت قبلها، فيستحق ذلك الدراسة الدقيقة والمتأنية لمعرفة طبيعة النقلة الحاسمة للرسالة الإسلامية بعد الهجرة، وما وقره الدين الجديد من مستلزمات لهذا التحوّل الحاسم فيزيدينا بصيرة بالإسلام. وبشموليّته.

وقد ذكر الباحثون خصائص لكل من المكي والمدني نلخصها فيما يلي:

١ - خصائص القسم المكي

أ: قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.

لكننا نلاحظ أنّ هذه ليست حالة مطردة حيث نجد أنّ مجموعة من السور والآيات الطوال مكية مثل الشعراء، الاعراف، الفرقان، الإسراء، يونس، يوسف، الأنعام، الشورى، الكهف، الأنبياء، المؤمنون، وغيرها.

كما أنّ مجموعة من الآيات والسور القصار مدنية مثل النصر، البيّنة، الجمعة، التغابن، الصف، الرحمن - آياتها قصار - وغيرها.

نعم، أكثر السور القصار والسور ذوات الآيات القصار مكية، كما أنّ نسبة السور الطوال المدنية أكثر من نسبة السور الطوال المكية.

ب: الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.

ونلاحظ أيضاً أنّ كثيراً من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه الأصول والمفاهيم آيات مدنية، نعم أكثر الآيات والسور المتضمنة لذلك آيات وسور مكية.

ج: الحث على مكارم الأخلاق والاستقامة في السلوك، وذمّ الممارسات والعادات المنبوذة كسفك الدماء وواد البنات وغيرها.

ونلاحظ أنّ هذه حالة غالبية أيضاً، ولا تختص بالسور المكية.

د: مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

هـ: الحديث عن الأنبياء والأمم السابقة.

ونلاحظ أنّ هاتين الخاصتين لا تختص بهما السور المكية أيضاً، وإنّما ذلك غالبي أيضاً.

و: مخاطبة كل الناس (يا أيّها الناس) وعدم الاقتصار على المؤمنين (يا أيّها الذين آمنوا).

وعند مراجعة دليل آيات القرآن الكريم نلاحظ ورود (يا أيها الناس) تسع مرّات في أربع سور مدنية - البقرة والنساء والحج والحجرات -.

كما أنّ مخاطبة المؤمنين وردت في الآيات المكية ثلاث مرات - لكن بغير لفظة يا أيها الذين آمنوا - وذلك في قوله تعالى: (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة) (٧). وقوله تعالى: (قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) (٨). وقوله تعالى: (يا عبادي الذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فيآي فاعبدون) (٩).

وممّا لاحظناه أنّ لفظة "كلاً" رغم ورودها ثلاثاً وثلاثين مرة في القرآن فإنّها لم ترد في آية مدنية، لكنه لا يبدو فارقاً مهماً.

٢ - خصائص القسم المدني

قيل: أهم ما يشيع في القسم المدني من خصائص عامة هي:

أ: طول السورة والآية المدنيتين.

ب: تفصيل البراهين والأدلة على المفاهيم الدينية. وأسس العقيدة الإسلامية.

ج: مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلوفي دينهم.

د: التحدث عن المنافقين ومشاكلهم.

هـ: تفصيل أحكام الرسالة الإسلامية في الحدود والفرائض والجهاد والحقوق والقوانين المتنوّعة الأخرى.

ولكن الملاحظ أنّ بعض هذه الخصائص المدعاة غالبية وليست عامة.

وعلى كل حال، فاختلاف خصائص القسمين المكي والمدني يرجع الى اختلاف طبيعة المرحلة والظروف التي كانت تحيط بالإسلام والمسلمين أثناء نزول كلّ من القسمين - كما سنوضحه في مناقشة الشبهات -.

شبهات المستشرقين حول المكي والمدني

لقد درس بعض المستشرقين ظاهرة المكي والمدني وفكرة وجود خصائص لكل منهما، فحاولوا استخلاص ميزات وخصائص لكل من المكي والمدني، ومن ثمّ استنتجوا من ذلك أنّ القرآن خضع لظروف بشرية متأثرة بالمحيط والمجتمع، وبالتالي فهو غير مرتبط بالله تعالى المنزه عن التأثير بهذه المؤثرات.. فهو من تأليف (محمد) لا من وحي السماء.

هذه هي الفكرة التي تدور حولها شبهاتهم هنا، وقبل أن نتطرق الى هذه الشبهات ومناقشتها بشكل تفصيلي، لا بدّ أن ننبّه الى نقطة هامّة.

وهي أنّنا يجب أن نفرّق بين خضوع القرآن للظروف والحالة البشرية، وبين انسجامه مع الواقع الموضوعي وطبيعة التدرج الموضوعي للرسالة الاسلامية.

ويتجلّى الفرق بينهما من خلال آثار وسمات كل من الحالتين، فمن آثار الحالة الأولى:

أ: التذبذب في المستوى الفني.

ب: المناقضة وعدم انسجام المفاهيم والمواقف والتشريعات.

ج: التطوّر التدريجي سواء بالنسبة للأسلوب أم بالنسبة للمضمون بسبب تراكم الخبرات أو نحوها.

د: انعكاس الحالات الإنسانية، مثل الانفعال والغضب والعاطفة ونحوها عليه وتأثره أسلوباً ومضموناً بها.

بينما نلاحظ أنّ آثار الحالة الثانية - أي الانسجام مع الواقع الموضوعي - تختلف تماماً عن طبيعة تلك الآثار، لأنّها ترجع الى معاشة هذا الواقع واستيعابه، لتوجيهه وتطويره..

وعندما نرجع الى القرآن الكريم لا نلمس أي مؤشر على خضوعه للحالة البشرية، ولا نجد فيه أي أثر من آثار هذا الخضوع، فليس فيه تذبذب في المستوى الفني أو مناقضة في المضمون، كما لا يخضع للتطور التدريجي ولا أمثال ذلك مما أشرنا إليه قبل قليل.

بل الملاحظ فيه انسجامه بأسلوبه ومضمونه مع متطلبات المراحل التي كانت تمرّ بها مسيرة الرسالة الإسلامية الطويلة والمعقدة خلال حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا يزيد القرآن عظمة وروعة - على العكس مما رامه هؤلاء المستشرقون -، إذ يؤكد ارتباطه بقوة عليا محيطية بالواقع الموضوعي وقادرة على إدارته بأزمائه وتعقيداته وظروفه المختلفة من دون أن تنفعل وتتأثر هي بالظروف والمؤثرات.

وقد التبس الأمر على هؤلاء المستشرقين - عن قصد أو من دون قصد - ولم يميّزوا بين الحالتين وطبيعة آثارهما، فجاء حكمهم معكوساً بعيداً عن الصواب، بينما كان حرياً بهم أن يتأملوا في ظاهرة انسجام القرآن - رغم تنوع مواضعه - مع برهتين مختلفتين تماماً - قبل الهجرة وبعدها - وعدم تذبذب مستواه ولا تناقض مضمونه خلال هذه المسيرة الطويلة والمتشعبة، ويجعلوا هذا برهاناً على عدم كونه من تأليف البشر المتأثر بمحيطه وظروفه وانفعالاته ومشاعره.

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (١٠).

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) (١١)، (١٢).

وبعد الانتباه لهذه النقطة الهامة، سنتناول تلك الشبهات ومناقشتها:

الشبهة الأولى:

إنّ القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة والعنف بل السباب أيضاً، وهذا يدلّ على تأثر محمد بالبيئة التي كان يعيش فيها، لأنها مطبوعة بالغلظة والجهل، ولذا يزول هذا الطابع عندما ينتقل محمد الى مجتمع المدينة، الذي تأثر فيه - بشكل أو بآخر - بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم، وقد اسشهد هؤلاء المستشرقون لتثبيت هذه الشبهة بمجموعة من السور المكية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف مثل سور "المسد" و"العصر" و"التكاثر" و"الفجر" وغيرها (١٣).

والجواب عن هذه الشبهة هو:

أولاً: إنّنا نرفض تماماً اشتغال القرآن الكريم على السبب وكل ما لا يليق، كما تشهد بذلك مراجعة الآيات القرآنية، رغم أنواع المآسي والتجاوزات التي مارسها أعداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ضدّه وضد أنصاره.

ثانياً: إنّ طابع الوعيد والإنذار لا يختص به القسم المكي، بل نجده كثيراً في القسم المدني حسب ما اقتضته الظروف، فمن ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) (١٤).

وقوله تعالى: (إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب * قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) (١٥).

وقوله تعالى: (إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) (١٦).

وقوله تعالى: (إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً) (١٧).

وهناك الكثير من الآيات المدنية المتضمنة للوعيد والتهديد (١٨). كما نلاحظ الكثير من الآيات المكية التي تفيض سماحة وليناً مثل قوله تعالى: (ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين * ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (١٩).

وقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله لا يحب الظالمين) (٢٠).

"الدرس التاسع والأربعون"

الشبهة الثانية:

إنّ القسم المكي يمتاز بقصر السور والآيات، وعرض المضمون بشكل موجز، بخلاف القسم المدني حيث نلاحظ السور الطوال فيه، مثل سور البقرة، والنساء، وآل عمران، وغيرها.

ويعود هذا التفاوت الى تأثره بالبيئة التي عاشها (محمد)، حيث كان المجتمع المكي أمياً لا يستوعب تفصيل المفاهيم، فجاءت الآيات والسور قصيرة موجزة، ثمّ لمّا عايش النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) المجتمع المدني المتحضّر نسبياً تأثر بهم فجاءت الآيات والسور طويلة بمضامين مفصّلة.

والجواب أولاً: إنّنا قد ذكرنا سابقاً إنّ قصر السور والآيات ليست خاصّة بالقسم المكي، بل نجد مثله في القسم المدني، كما أنّ طوال السور والآيات لا يختصّ بالقسم المدني، بل هو كثير في القسم المكي، فوجود كلا القسمين يؤكّد أنّ اختيار نمط السورة أو الآية يتبع متطلبات الموقف والظرف، وليس ناشئاً من محدودية في قدرات منزل القرآن الكريم.

وبهذا تفسّر الكثرة النسبية للسور والآيات القصار في القسم المكي والسور والآيات الطوال في القسم المدني، حيث أنّ الدراسات اللغوية المتخصصة أكدت أنّ الإيجاز يعتبر مظهراً من مظاهر القدرة الفائقة على التعبير، وهو بالتالي من مظاهر الإعجاز القرآني(٢١).

وحيث نزل القرآن متحدّياً للعرب فكان قصر الآيات والسور أقوى في الدلالة على الإعجاز البياني الذي يهزّ مشاعر المكّيين أكثر من غيره خصوصاً مع كثرة السور القصار وتنوّعها.

وربّما نضيف الى ذلك ظروف المسلمين الخاصة آنذاك وتحفّيم وتشتتهم بحيث يسهل عليهم الحفظ والتفاعل مع السور القصار، بينما اختلفت الظروف في المدينة حيث صاروا أمّة، لهم كيانهم الخاص بهم.

وثانياً: لو افترضنا أنّ لطبيعة المجتمعين المكي والمدني وثقافتيهما دوراً في هذا التفاوت النسبي في أسلوب القسمين، فهذا لا يقلل من قيمة القرآن ولا ينفي ارتباطه بالسماة وعدم خضوعه للطبيعة البشرية، لأنّه لا يعني سوى انسجام القرآن مع الواقع الموضوعي من حوله، فهو يتحدّث بلغة المحيط والمجتمع الذي ينزل بينهم.

كما كان اختيار اللغة العربية له باعتباره قد نزل بين العرب وعلى رسول عربي. كل ذلك كي ينفذ الى أعماق نفوس أبناء هذا المجتمع والتأثير فيهم وإقامة الحجة عليهم، باعتبار أن أرضهم وبلادهم مهد القرآن، وقد نَبَّهنا سابقاً - قبل استعراض هذه الشبهات - على ضرورة التفريق بين خضوع القرآن للطبيعة البشرية وبين انسجامه مع الواقع والظروف والمجتمع المحيط به، والذي يفترض أن ينطلق الى الأمم الأخرى من خلاله. وكما قلنا سابقاً يكون هذا الانسجام شاهداً إضافياً على انتسابه للسماء لا للبشر (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) (٢٢).

وقد ذكر علماء البلاغة أنّ مميزات المتكلم البليغ مراعاته لمقتضى الحال، إذ لكل مقام مقال كما جاء في المثل المعروف، وهل هناك أولى من كلام الله الحكيم الخبير في مراعاة ذلك؟

ثالثاً: إنّ تفاعل الإنسان مع المجتمع والبيئة الجديدة لا يتم بسرعة بين ليلة وضحاها، خاصة ما يرتبط بتطور قدراته الذاتية وتفاعله مع ثقافة المجتمع الجديد الذي يعيشه، وكفينا لتأكيد هذه الحقيقة أن نلقي نظرة على الجماعات المهاجرة الى البلدان الأخرى والمعاناة التي يعانونها بسبب عدم قدرتهم على التفاعل مع مجتمعات هذه البلدان، حتى أنّ هذه المعاناة قد تمتد الى أجيالهم اللاحقة.

بينما نلاحظ أنّ نزول القرآن الكريم تلاحق بمجرد هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للمدينة المنورة ولم تمرّ فترة انقطاع طويلة ريثما يتفاعل (محمد) مع المجتمع الجديد، فهل يعقل مع هذا أن يكون هذا القرآن من (محمد) خاصة إذا عرفنا أنّ أول سورة مدنية هي سورة البقرة - أكبر سورة في القرآن - وأنّ السور الست الأولى النازلة في المدينة، هي البقرة، الأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، حيث تندرج فيها أكبر ثلاث سور في القرآن، وفيها القسم الكبير أو الأكبر من المفاهيم والتشريعات التفصيلية المتنوّعة فكيف استطاع (محمد) المكي المتأثر بالبيئة المكية الأمية والساذجة - كما يزعمون - أن يغيّر خطابه بهذا المستوى من التباين خلال فترة وجيزة؟!!

الشبهة الثالثة:

إنّ القسم المكي لم يتناول التشريع في مجالات العلاقات والشؤون المرتبطة بالمجتمع، ويرجع هذا الى طبيعة بيئة مكة المتخلفة، بينما نلاحظ اشتغال القسم المدني على ذلك بسبب تطور المجتمع المدني المتأثر بثقافة أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

والجواب عن هذه الشبهة يتضح من خلال ما تقدم، فإنّ عدم تناول القسم المكي للتشريع يعود الى انعدام موضوعه آنذاك حيث كان المسلمون أقلية متناثرة مستضعفة، ولا توجد أرضية لتطبيق هذه التشريعات الإسلامية فكان بيانها - آنذاك - سابقاً لأوانه.

وأما ادعاء تأثر المشرّع الإسلامي بثقافة أهل الكتاب فهو ادعاء غير صحيح تكذّبه الشواهد، حيث نجد:

أولاً: إنّ ابتداء التشريع الإسلامي كان بمجرد هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة وقبل أن يمرّ زمن طويل يسمح بتفاعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أهل الكتاب.

وثانياً: إنّ التشريع الإسلامي يختلف اختلافاً جوهرياً مع التشريع المتداول لدى أهل الكتاب، وكانوا هم يدركون ذلك. ولذا لم يصدر منهم هذا الادعاء.

وهذه قضية هامّة حيث إنّ ادعاء تأثر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل الكتاب لم يصدر إلا من المتأخرين، ولو كان له حقيقة لادعاه أهل الكتاب المعاصرون له، والذين كانوا يحاورون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين ويجادلونهم حتى وصل الأمر بنصاري نجران الى طلب المباحلة مع شخص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

"الدرس الخمسون"

الشبهة الرابعة:

إنّ القسم المكي لم يتضمّن الأدلة والبراهين على أصول العقيدة وتعاليم الرسالة الإسلامية على خلاف القسم المدني، وهذا مؤشّر آخر على تأثر القسم المكي بالمجتمع المكي الساذج البسيط، وتأثر القسم المدني بمجتمع المدينة الحضاري المتطور، وإنّ القرآن الكريم اكتسب العمق في البرهنة والاستدلال من أهل الكتاب المتواجدين والمؤثرين في مجتمع المدينة.

ويتّضح الجواب عن هذه الشبهة من خلال ما تقدّم أيضاً، من رجوع ذلك إلى تفاوت متطلبات الموقف واختلاف طبيعة المجتمع الذي كان في المدينة عن المجتمع المكي من دون أن يعني ذلك تاثر القرآن وتطوره تبعاً لتطور البيئة المحيطة به.

ونضيف على ذلك انا عندما راجعنا المصحف الشريف لاحظنا كثيراً من الاستدلالات في القسم المكي مما يعني انهيار الشبهة من أساسها.

فمن ذلك قوله تعالى: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) (٢٣).

وقوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون) (٢٤).

وقوله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون... أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) (٢٥).

وقوله تعالى: (إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) (٢٦).

وقوله تعالى: (... والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) (٢٧).

وهناك آيات أخرى كثيرة جداً في القسم المكي تضمنت البرهنة والاستدلال.

الأسئلة

١ - ما هو معنى المكي والمدني؟

٢ - ما هي أهم خصائص القسم المكي؟

٣ - ما هي أهم الخصائص للقسم المدني؟

٤ - ما هي أهم مميزات الخضوع للحالة البشرية عن الانسجام مع الواقع الموضوعي؟

٥ - كيف تجيب عن الشبهة القائلة ان القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة، بل السباب؟

٦ - كيف تجيب عن الشبهة القائلة ان القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بقصر سوره وآياته مما يدل على تأثر محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بالمحيط الذي هو فيه؟

جمع القرآن

من الأبحاث الهامة التي تبحث عادة في علوم القرآن قضية جمع القرآن، والعصر الذي تم فيه ذلك.

ونشير هنا إلى أن الجمع قد يطلق ويراد منه أحد أربعة معان:

أولاً: الحفظ (في الصدور)

وقد فسّر البعض الأحاديث الواردة في أنّ بعض الصحابة جمع القرآن في عهد رسول الله بأنهم قد حفظوه، مثل ما أخرجه النسائي عن عبد الله بن عمر أنّه قال: جمعتُ القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي (ص) فقال: اقرأه في شهر... (٢٨).

وكذلك ما أخرجه ابن أبي داود عن محمد بن كعب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله خمسة من الأنصار معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري (٢٩).

ويبدو أنّ هناك عدداً من الصحابة كانوا يحفظون القرآن الكريم، وفي مقدّمهم الإمام علي(عليه السلام) كما اشارت إليه مجموعة من النصوص.

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته

وقد دلت النصوص والشواهد التاريخية على كتابة القرآن الكريم بمجموعه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يكلف بعض الصحابة بكتابة القرآن حتى عُرفوا بكتّاب الوحي، ولا تميّز لبعض الآيات دون غيرها لتختص بالكتابة، كما أشارت مجموعة من النصوص الى ذلك، مثل ما رواه الحاكم عن زيد بن ثابت، قال: كُنّا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نُؤلف القرآن من الرقاع "قال الحاكم": هذا حديث صحيح على شرط الشيخين "وفيه الدليل الواضح أنّ القرآن إنّما جُمع على عهد رسول الله" (٣٠) قال البيهقي: يشبه أن يكون أنّ المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة وجمعها فيه بإشارة النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) (٣١).

(١) التفسير الكاشف: ١ / ١٣ - ١٤.

(٢) المصدر: ١٤ - ١٥.

(٣) المصدر السابق: ١٥ - ١٦.

(٤) الميزان: ١ / ١٣ - ١٤.

(٥) الأمتل: ١ / ١٢ - ١٣.

(٦) مناهل العرفان: ١ / ١٩٦.

(٧) سورة إبراهيم: ٣١.

(٨) سورة الزمر: ١٠.

(٩) سورة العنكبوت: ٥٦.

(١٠) سورة محمد: ٢٤.

(١١) سورة النساء: ٨٢.

(١٢) تقدّم في مبحث اعجاز القرآن ما يرتبط بهذا الموضوع.

(١٣) يراجع (علوم القرآن): ٨٢.

(١٤) سورة البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(١٥) سورة آل عمران: ١٠ - ١٢.

(١٦) سورة البقرة: ١٦١ - ١٦٢.

(١٧) سورة النساء: ٥٦.

(١٨) راجع تفصيل آيات القرآن الحكيم.

(١٩) سورة فصلت: ٣٣ - ٣٥.

(٢٠) سورة الشورى: ٤٠.

(٢١) راجع (علوم القرآن): ٥٥ - ٥٦.

(٢٢) سورة يونس: ٣٧.

(٢٣) سورة المؤمنون: ٩١.

(٢٤) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٢٥) سورة العنكبوت: ٤٨ و ٥١.

(٢٦) سورة الجاثية: ٣ - ٥.

(٢٧) سورة فاطر: ١٣ - ١٤.

(٢٨) سنن النسائي، كتاب الصيام: ٧٦ - ٧٨.

(٢٩) مناهل العرفان: ١ / ٤٤٤.

(٣٠) البيان: ٢٧٣ نقلاً عن المستدرک للحاکم: ٢ / ٦١١.

(٣١) الاتقان: ١ / ٢٠٣.

"الدرس الحادي والخمسون"

الثالث: الجمع بمعنى حفظه (مكتوباً) من الضياع

وقد اختلف الباحثون في ذلك، فبينما يرى أغلب علماء الجمهور أنّ هذا الجمع قد تمّ في عهد الخلفاء بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - على اختلاف بينهم في تحديد الخليفة الذي تمّ هذا الجمع في عهده - اعتماداً على عدد من النصوص التي رووها في مصادرهم..

منها ما رواه البخاري عن عبيد بن السبّاق "انّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ارسل إليّ أبو بكر الصديق مقتلاً أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: انّ عمر أتاني فقال: انّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرآن القرآن، وإني أخشى إنّ استحرّ القتل بالقرآن بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أنّ تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد قال أبو بكر: "إلّا رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فتنبّع القرآن فاجمعه" فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن.

قلتُ: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: هو - والله - خير. لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فتتبع القرآن أجمعه من العُسب (١) واللخاف (٢) وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه" (٣).

وفي مقابل ذلك يرى شيعة آل البيت أن هذا الجمع قد تمّ في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما تشهد به مجموعة من النصوص التي سنشير إليها، وكذلك الشواهد الأخرى، إذ لم يعهد اختلاف المسلمين في القرآن في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - إلا في إطار ضيق كاللهجة ونحوها - ممّا يؤكد كونه مكتوباً ومحفوظاً، لأنّ فرضية الاقتصار على حفظه في النفوس تستدعي اختلافهم في آياته بسبب النسيان واضطراب الحافظة لدى الإنسان العادي. كما ان كتابته على العسب و اللخاف ونحوهما - من القراطيس البدائية - من دون حفظه يعرّضه للضياع، والاختلاف فيه، و ذلك لا ينسجم مع موقعية القرآن الكريم ومكانته لدى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمتة.

الرابع: الجمع ضمن مصحف واحد

وقد اختلف الباحثون في ذلك فيرى بعضهم أنّه قد تمّ في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مستشهدين بمجموعة من الشواهد، منها ان القرآن كان له حفظة ومدرسون ممّا يكشف عن جمعه ضمن المصحف، وكذلك حديث الثقلين الدال على كونه مجموعاً ضمن كتاب جامع.

ويرى الفريق الآخر أن هذا الجمع قد تحقق بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) مستشهدين بمجموعة من النصوص المروية من الفريقين.

منها: النصوص الدالة على أنّ أول من جمع القرآن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، مثل ما رواه علي بن إبراهيم بسنده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعلي: يا علي، القرآن خلف فراشي في المصحف والحريير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق علي فجمعه في ثوب أصفر، ثمّ ختم عليه في بيته، وقال: لا ارتدي حتى أجمعه، وإن كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه.. (٤).

وروى المتقي الهندي عن محمد بن سيرين قال: "لما توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا الجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل" (٥)، وقال ابن النديم: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن (٦).

وقال ابن شهر آشوب: "وفي أخبار أبي رافع أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي: يا علي هذا كتاب الله خذ إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى الى منزله فلما قبض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جلس علي فألفه كما أنزل الله وكان به عالماً (٧).

وليس هناك اثر عملي مهم يترتب على العصر الذي تمّ فيه هذا الجمع بعد أن اثبتنا أنّ الجمع بالمعنى الثالث قد تمّ في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

الخامس: جمع القرآن بمعنى توحيد المصاحف

ويبدو من مجموعة من النصوص أنّ توحيد المصاحف قد تحقق في عهد عثمان بن عفان بعد أن تعددت مصاحف الصحابة وتمايزت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد روى البخاري بسنده عن ابن شهاب أنّ انس بن مالك حدّثه "انّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فافزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة الى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فائماً نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة، فأرسل الى كل أفق بمصحف ممّا نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (٨).

والمقصود بهذه الآفاق كبريات الحواضر الإسلامية. قال ابن أبي داود: كانت ستة حسب الأمصار المهمة نوات المركزية الخاصة، مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن، وحبس السابعة - وكانت تسمى الأم أو الإمام - بالمدينة، وزاد اليعقوبي مصر والجزيرة (٩).

ترتيب القرآن

من البحوث التي أثير حولها الجدل تحديد الفترة التي تمّ فيها الترتيب الحالي بين الآيات والسور القرآنية، وإنه هل كان كذلك منذ زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أنه أمر استحدث بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

ويفترض البحث في نقطتين..

الأولى: في الترتيب بين الآيات القرآنية ضمن السورة الواحدة

الصحيح أنّ القرآن الكريم الموجود بين أيدينا يمتد في ترتيب آياته الى عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وتوجد على هذا عدّة شواهد..

الأول: إنّ السورة القرآنية مهما اختلفت آياتها في المضامين وتاريخ النزول فهي تمثل وحدة جامعة للآيات التي تتضمنها وفق التسلسل الخاص فيما بينها.

فهي نظير كلمة المتكلم والرسالة والكتاب، فكما يكون التغيير في تسلسل مقاطع الكلمة أو الرسالة أو في تسلسل فصول الكتاب تلاعباً به وخيانة لصاحبه، فكذلك التغيير في ترتيب آيات السورة الواحدة، فإنّه يعتبر تحريفاً وتلاعباً بالقرآن الكريم، لأنّ التسلسل الخاص بين الآيات دخيل في هيئة السور القرآنية، فالنصوص الواردة في فضل أية سورة لوحظ فيها الترتيب الخاص بين آياتها. وكذلك باقي أحكام السورة.

ولذلك لا يجوز الفقهاء التغيير في آيات السورة الواحدة في الصلاة. فكل تغيير في ذلك يعتبر نوعاً من التحريف في القرآن. فتنتفيه أدلة نفي التحريف المتقدّمة، خصوصاً عندما نلاحظ أنّ هذا التغيير يصحبه عادة تغيير السبك أو تغيير المعنى واختلاف فهم مضامين الآيات.

الثاني: وجود العديد من النصوص الدالة على أنّ الترتيب بين الآيات كان يتمّ بأمر من الرسول نفسه.

منها: ما أخرجه أحمد بن حنبل بإسناده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ شخّص ببصره ثم صوّبه، ثم قال: "أتاني جبرئيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة الى آخرها" (١٠).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) "وإنما كان يعرف انقضاء السورة بنزول "بسم الله الرحمن الرحيم" ابتداءً للأخرى" (١١) مما يكشف عن تميّز السور في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنها: الأحاديث الواردة في خواتيم بعض السور أو أوائلها، مثل ما رواه مسلم عن أبي الدرداء مرفوعاً: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال" وفي لفظ آخر: "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف" (١٢).

ونظيره ما رواه الكليني بسنده عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: "ما من عبد يقرأ آخر الكهف إلا تيقظ في الساعة التي يريد" (١٣).

وكذلك ما ورد في آثار وفضل أوائل أو اواخر السور الأخرى، ممّا يعني ترتّب الآيات ضمن تسلسل محدّد منذ عهد الرسول وآل بيته (صلوات الله عليهم). وقد ادّعى عدد من الباحثين في علوم القرآن الإجماع على ذلك، منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته (١٤)، والسيوطي في الاتقان (١٥).

النقطة الثانية: الترتيب بين السور

وقد اختلف العلماء والباحثون في ذلك، فمن يرى أنّ جمع القرآن ضمن مصحف واحد قد تمّ في عهد الخلفاء بعده ذهب الى ان الترتيب الفعلي بين السور قد حدث آنذاك، بينما يرى آخرون - كابن الانباري والسيد المرتضى - أن الترتيب المذكور توقيفي قد تولاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وبما أنه لا تترتب على ذلك ثمرة مهمة لا موجب لإطالة الكلام فيه.

"الدرس الثالث والخمسون"

الملاحظ أنّ هناك قراءات عديدة للآيات القرآنية، والمشهور منها حالياً سبع قراءات منسوبة لسبعة من القرّاء. وقد تعدّدت الآراء حول القراءات المتعدّدة للقرآن الكريم، ومدى اعتبارها، والضوابط الدقيقة للقراءة المعتمدة.

وقد ادعى البعض تواتر القراءات السبع المشهورة، قال الزركشي: "والقراءات السبع متواترة عند الجمهور" (١٦)، ونسب الزرقاني القول بتواتر القراءات العشر الى "المحقّقين من الأصوليين والقرّاء كابن السبكي وابن الجزري والنويري..." (١٧).

ويجدر بنا أن نشير الى تاريخ القراءات وأسباب تعدّدها، فنقول:

يرجع الاختلاف بين القراءات الى عصر الصحابة عقب وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما تشير إليه المصادر التاريخية، "حيث عمد جماعة من كبار صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته الى جمع القرآن في مصاحف، كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل والمقداد بن الأسود وأضرابهم، وربّما اختلفوا في ثبت النص أو في كيفية قراءته، ومن ثمّ اختلفت مصاحف الصحابة الأولى" (١٨).

ويشير ابن أبي داوود الى أنّ المصحف الذي جمع عثمان الناس عليه لم يخل من لحن، حيث ذكر أنّ المصحف المذكور قد عرض على عثمان فقال: "قد احسنتم واجملتهم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها، ثمّ قال: أما لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقف لم يوجد فيه هذا" (١٩).

اذن ففضية اختلاف القراءات ليست وليدة العصور المتأخرة، وانّما تمتد إلى عصر الصحابة، بل تدل بعض النصوص - بغض النظر عن صحّتها - الى تعدد القراءات في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

منها: ما روي عن أبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها فدخلنا جميعاً على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ودخل ثالث فقرأ كل واحد ممّا غير قراءة صاحبه فجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحسّن الجميع..." (٢٠).

ومنها: ما عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أقرأني عبد الله بن مسعود وزيد وأبي فاختلفت قراءتهم، بقراءة أيّهم أخذ؟ قال: فسكت رسول الله... (٢١).

ومنها: ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)... فانطلقت به أقوده الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئها.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أرسله، اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف. فاقرأوا ما تيسر منه" (٢٢).

وهناك عدد آخر من النصوص بهذا المعنى رواها علماء الجمهور. وإن كنا نتحفظ بالنسبة لمضمون بعضها المتضمن لاختلاف القرآن المنزل.

تدوين القراءات المشهورة

اُضح من خلال ما تقدّم أنّ ظاهرة تعدد القراءات كانت معروفة منذ عصر الصحابة، وقد انتقلت الى المسلمين

الذين تعلموا القرآن منهم، وساهمت عدّة عوامل - سنشير إليها - في تعميق الاختلاف بين القراءات، وتكثيره، حتى صارت القراءة فنّاً كسائر الفنون.

وتجرّد - في فترة لاحقة - قوم لفنّ القراءة واعتنوا به حتى اشتهر فيه جماعة عُرفوا بالقراء، ولكل واحد منهم قراءة يتمييز بها.

وقد تصدّى المهتمون ببحوث القرآن الكريم الى ضبط هذه القراءات وجمعها.

فذكر ابن الجزري أنّ أول من تصدى لتدوين القراء وقراءاتهم هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (ت: ٢٢٤) تلميذ الكسائي، وقال: "وجعلهم فيما احسب خمسة وعشرين قارئاً، بما فيهم السبعة الذين اشتهروا فيما بعد".

وجاء بعده أحمد بن جبير بن محمد أبو جعفر الكوفي (ت: ٢٥٨) فجمع كتاباً في قراءات الخمسة من كل مصر واحداً.

ثمّ القاضي اسماعيل بن اسحاق - صاحب قالون - (ت: ٢٨٢) ألف كتاباً جمع فيه قراءة عشرين قارئاً.

ثم ألف أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠) كتاباً حافلاً سمّاه الجامع فيه نيف وعشرون قراءة.

الى أن جاء ابن مجاهد أبو بكر أحمد بن موسى (ت: ٣٢٤) فألف كتاباً اقتصر فيه على قراءات السبعة فقط (٢٣). وبعده ألف الآخرون على منواله.

وهكذا نلاحظ أن تعيين هؤلاء القراء السبعة وتمييزهم عن غيرهم كان مصدره ابن مجاهد في القرن الرابع الهجري. ولم يميّزهم الذين سبقوه في تدوين القراءات والقراء.

"الدرس الرابع والخمسون"

أهم عوامل اختلاف القراءات

نستطيع أن نعتبر أهم العوامل التي أدت الى اختلاف القراءات ما يلي:

١ - عدم دقة بعض الصحابة ومن أخذ عنهم في حفظ الآيات، ولذلك نجد أن بعض القراءات تختلف في الكلمات زيادةً ونقصاً، أو تتباين كلماتها، ولعلّ من ذلك ما روي عن يزيد النخعي قال: أتني في المسجد زمن الوليد بن عقبة... واختلفا في آية من سورة البقرة قرأ هذا "وأتمّوا الحج والعمرة للبيت" وقرأ هذا: (وأتمّوا الحج والعمرة لله) (٢٤).

٢ - بداءة الخط الذي كتبت به المصاحف.

حيث لم يكن الخط متطوراً آنذاك، ولم تكن له قواعد دقيقة، ويمكن أن نسجّل - في هذا المضمار - الملاحظات التالية - في الخط - التي قد تكون منشأ لاختلاف القراءات:

أ: عدم التنقيط، ولعلّ منشأ ذلك قراءة الكسائي (إن جاءكم فاسق بنبأ فتنبّئوا) (٢٥). وقرأ الباقر (فتبيّنوا). ومنه قراءة ابن عامر وحفص (ويكفر عنكم) (٢٦). وقرأ الباقر (نكفر عنكم).

ب: تجريد الحروف عن الحركات ونحوها من العلامات، فقد قرأ نافع قوله تعالى: (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) (٢٧) بصيغة النهي، بينما قرأها الباقر بصيغة المضارع المجهول.

ج: إسقاط الألفات: فقد قرأ أبو جعفر والبصريون (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة) (٢٨)، وقرأ الباقون (واعدنا).

٣ - اختلاف لغات العرب ولهجاتهم.

مثل (نستعين) قال الفرّاء: "هي مفتوحة في لغة قيس وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون" (٢٩).

٤ - تحكيم الرأي والاجتهاد.

ويبدو أنّ هذا من العوامل المهمّة لاختلاف القراءات، روى أبو جعفر الطبري والحاكم النيسابوري - وصحّحه - عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (٣٠) هي من خطأ الكاتب، وإّما هي (حتى تستأذنوا وتسلموا) (٣١). وقد تقدّمت مجموعة أخرى من النصوص. هذه هي أهم العوامل التي أدّت الى اختلاف القراءات وربّما تكون هناك عوامل أخرى، تعرّضت لها المصادر المطوّلة.

وبعد أن عرفنا اختلاف القراءات وأهم عوامل هذا الاختلاف فلا بدّ من تحديد ضوابط القراءة الصحيحة المعتمدة، وعدم الاعتماد على غيرها من القراءات غير الثابتة. وهذا ما سوف نشير إليه إن شاء الله تعالى.

أمّا ما هي الضابطة المعتمدة في اختيار القراءة الصحيحة فنقول: أشرنا آنفاً الى أنّ كثيراً من علماء الجمهور اعتمدوا القراءات السبع المعروفة، وبعضهم اعتمد القراءات العشر - التي سنشير الى أصحابها - وقد أشرنا وسنوضح عدم الخصوصية لهذه القراءات بالنسبة لغيرها.

أمّا أتباع أهل البيت (عليهم السلام) فيعتمدون كل قراءة كانت مألوفة في عصور الأئمة (عليهم السلام) في الصلاة وغيرها، كما نصّ على ذلك السيد الحكيم ((قدس سره)) (٣٢)، وغيره من الفقهاء.

لأنّ عدم ردع الأئمة من آل البيت (عليهم السلام) عن أية قراءة مألوفة في عصورهم دليل على اعتبارها كلها عندهم (عليهم السلام)، بل تضمّنت بعض النصوص الحث على القراءة المألوفة بين الناس.

وعلى كل حال، لاشك في اعتبار النسخة المتداولة من القرآن الكريم التي هي قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي - برواية حفص - التي أخذها عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعدد آخر من الصحابة، وقد حكى الذهبي عن حفص عن عاصم عن أبي عبد الرحمن قال "لم أخالف علياً في شيء من قراءته، وكنت أجمع حروف علي، فألقى بها زيّداً في المواسم بالمدينة فما اختلفنا إلا في التابوت كان زيّد يقرأ بالهاء وعلي بالتاء" (٣٣).

وروي أنّ زيد لما قرأ (التابوه) قال علي(عليه السلام) اكتبه (التابوت) فكتبه كذلك(٣٤).

"الدرس الخامس والخمسون"

القراءات السبع والأحرف السبعة

قدّمنا أنّ هناك سبعة من القراءات تنسب لهم القراءات المعروفة بـ(القراءات السبع) حيث اشتهرت بهذه التسمية، وإنّ كثيراً من علماء الجمهور قد اعتمد هذه القراءات وادّعى تواترها، وربط بعضهم بينها وبين ما ورد من أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، مدّعياً أنّ هذه القراءات السبع هي الأحرف السبعة التي تشير إليها هذه النصوص.

ونحن نبحت أولاً في نصوص الأحرف السبعة ومدى انطباقها على القراءات السبع، ثمّ نتحدّث عن مدى اعتبار هذه القراءات السبع.

فكرة نزول القرآن على سبعة أحرف

وردت مجموعة من النصوص التي تضمّنت أنّ القرآن قد نزل على سبعة أحرف، وقد اختلف العلماء والباحثون في فهم هذه النصوص وتفسير الأحرف السبعة.

وعندما نرجع الى هذه النصوص نجدّها مختلفة فيما بينها وغير متّفقة على مضمون واحد، فبعضها يفسّر الأحرف السبعة بأمر يرجع الى معاني الآيات القرآنية بينما يبدو من نصوص أخرى أنّ الأحرف السبعة ترجع الى الفسحة في النطق بالآيات الكريمة وتعدد كفيّات قراءتها.

فمن القسم الأول مجموعة من النصوص المروية في المصادر الحديثية الشيعية والسنيّة، منها..

١ - ما رواه أبو جعفر الصدوق بسند فيه محمد بن يحيى الصيرفي - وهو مجهول - عن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: "إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه" (٣٥).

٢ - ما رواه محمد بن الحسن الصفار عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه السلام): قال: "تفسير القرآن على سبعة أحرف، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، ذلك تعرفه الأئمة" (٣٦).

٣ - ما رواه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النعماني مرسلًا عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: "أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كاف، وهي: أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص... (٣٧).

ورغم أنّ هذا النص لم يستعمل لفظ "أحرف" إلا أنّه يتفق مع بعض النصوص الآتية التي استعملت هذه اللفظ.

٤ - في تفسير الطبري عن أبي قلابة قال: "بلغني أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "أنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل" (٣٨).

ونلاحظ أنّ هذه النصوص - ونحوها - اجنبية تماماً عن موضوع تعدّد القراءات، لأنّها تتحدث عن المعاني والمواضيع التي يتناولها القرآن الكريم.

القسم الثاني من النصوص - المتحدّثة عن الأحرف السبعة - الذي يلوح منه تفسير الأحرف السبعة بالقراءات وتعدّد النطق بآيات القرآن الكريم. من ذلك..

١ - ما رواه الترمذي عن أبي بن كعب أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقي جبرئيل، فقال له: "أنيّ بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد، إنّ القرآن أنزل على سبعة أحرف" (٣٩).

٢ - روى البخاري ومسلم عن ابن شهاب أنّ عمر سمع هاشم بن حكيم يقرأ في صلاته على حروف لم يكن يعرفها، فأتى به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: "كذلك أنزلت، إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه" (٤٠).

٣ - روى أبو داود: أنّ أبي بن كعب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "يا أباي انّي أقرئت القرآن فقيل لي: على حرف أو حرفين، فقال الملك الذي معي: قل على حرفين، قلت: على حرفين، فقيل لي على حرفين أو ثلاثة، فقال الملك

الذي معي: قل على ثلاثة، قلت: على ثلاثة، حتى بلغ سبعة أحرف" ثم قال: "ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعاً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب" (٤١).

٤ - أخرج الطبري بإسناده عن أبي هريرة أنه قال: "قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقروا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة" (٤٢).

ونلاحظ أنّ هذه الروايات - ونحوها غيرها - تفسح المجال واسعاً لعدم التقيّد بصيغة محددة للنص القرآني، بل يذهب بعضها أكثر من ذلك حيث يسمح بالتغييرات الكيفية المؤثرة على المعنى أيضاً كما نلاحظه في الروايتين (٣ و ٤) عن أبي بن كعب وأبي هريرة.

وتواجه هذه الروايات مجموعة من الملاحظات تمنع من الأخذ بظاهرها، منها..

"الدرس السادس والخمسون"

أ: تناقضها فيما بينها، فبينما تسمح بعضها بكل تغيير في كلمات القرآن - شريطة عدم ختم الرحمة بالعذاب وبالعكس - نجد البعض الآخر منها يسمح الى حدّ سبعة حروف فقط.

وقد حاول البعض رفض التحديد بالسبعة مدّعياً أنّ "المقصود من السبعة هي الكثرة النسبية" (٤٣).

ولكنه غير صحيح، لأنّ اتفاق النصوص المحدّدة على التحديد بالسبعة لا ينسجم مع إلغاء التحديد وكونه لمجرد الكناية عن الكثرة.

ب: أنّه يفتح باب التلاعب ويمنح الشرعية لتحريف القرآن الكريم، ولا يليق بأيّ مسلم الالتزام بذلك والقبول به، خصوصاً أنّ هذه الأحرف السبعة لم تحدد ضابقتها، قال المحقق السيد الخوئي (ره): إن كان المراد من هذا التوجّه أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد جوّز تبديل كلمات القرآن الموجودة بكلمات أخرى تقاربها في المعنى - ويشهد لهذا بعض الروايات المتقدّمة - فهذا الاحتمال يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبدية والحجة على جميع البشر، ولا يشك عاقل في أنّ ذلك يقتضي هجر القرآن المُنزل وعدم الاعتناء بشأنه، وهل يتوهم عاقل ترخيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقرأ القارئ "يس والذكر العظيم إنك لمن الأنبياء على طريق سوي، انزال الحميد الكريم لتخوّف قوماً ما خوّف أسلافهم فهم ساهون". فلنقرّ عيون

المجوزين لذلك، سبحانه إن هذا إلا بهتان عظيم، وقد قال الله تعالى: (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي) (٤٤).

ج: وجود مجموعة من النصوص - بعضها صحيح السند - تنفي ذلك، وتمنع من التلاعب بالقرآن الكريم، منها: صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: "إنّ القرآن واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة" (٤٥).

ومنها ما رواه في الكافي بسند معتبر عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إنّ الناس يقولون إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: "كذبوا أعداء الله، ولكّنه نزل على حرف واحد من عند الواحد" (٤٦).

د: لم يعرف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قد قرأ آية بوجهين أو أكثر لا عند تبليغها ولا بعد ذلك، وكذلك الأئمة من أهل بيته (عليهم السلام)، مع أنه لو كان ذلك من القرآن لما تقيّدوا بصيغة واحدة.

ومن مجموع ما ذكرناه يتّضح أنّ هذه النصوص لا تصلح لإثبات نزول القرآن على سبعة أحرف، بحيث يتخيّر القارئ في قراءته بصيغ وأشكال مختلفة.

القراءات السبع

أشرنا إلى أنّ كثيراً من علماء الجمهور قد ادّعى تواتر القراءات السبع المعروفة، ومن ثمّ فهي كلّها قراءات معتبرة، قال بدر الدين الزركشي "والقراءات السبع متواترة عند الجمهور، وقيل بل مشهورة..." (٤٧).

ونسب الزرقاني القول بتواتر القراءات العشر إلى "المحقّقين من الأصوليين والقراء كابن السبكي وابن الجزري والنويري..." (٤٨).

ونكتفي هنا بالإشارة إلى عدم تواتر القراءات السبع المعروفة.

وقبل ذلك نمرّ مروراً سريعاً على القراء السبعة وراويين من روايتهم حسب ما جاء في كتاب "السبعة" لابن مجاهد، وإلا فالرواة أكثر من ذلك.

١ - عبدالله بن عامر اليحصبي، قارئ الشام (ت: ١١٨) وراوياه هما هشام بن عمّار وابن ذكوان، ولم يدركاه، لأنّ هشاماً ولد عام ١٥٣، ومات ٢٤٥، وابن ذكوان ولد عام ١٧٣ ومات ٢٤٢، ومن ثمّ لم يعرف السبب في اختيار ابن مجاهد هذين للرواية عن ابن عامر. علماً أنّه قد طعن عدد من العلماء في وثاقة هشام. وورد الطعن في ابن عامر أيضاً.

٢ - عبد الله بن كثير الداري، قارئ مكة (ت: ١٢٠) وراوياه هما أحمد بن محمد البزي، ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بقنبل، ولم يدركاه أيضاً، لأنّ الأول ولد سنة: ١٧٠ وتوفي سنة: ٢٥٠، والثاني ولد سنة ١٩٥، وتوفي سنة: ٢٩١.

وقد ورد الطعن فيهما، خصوصاً بالنسبة الى البزي.

٣ - عاصم بن أبي النجود الأسدي، قارئ الكوفة (ت: ١٢٨).

وراياه هما حفص بن سليمان (٩٠ - ١٨٠)، وشعبة أبو بكر بن عيّاش (٩٥ - ١٩٣).

٤ - أبو عمر بن العلاء المازني، واسمه زيان قارئ البصرة (ت: ١٥٤).

وراياه حفص بن عمر الدوري (ت: ٢٤٦). وصالح بن زياد السوسي (ت: ٢٦١) ولم يدركاه، وإنّما روي عن اليزيدي عنه.

وقد ورد الطعن في راوييه، فيما وثقهما آخرون.

٥ - حمزة بن حبيب الزيات قارئ الكوفة أيضاً (ت: ١٥٦).

وراياه هما خلف بن هشام البزاز (١٥٠ - ٢٢٩). وخلاد بن خالد الشيباني (ت: ٢٢٠).

رويا عنه بالواسطة. وقد طعن البعض بقراءة حمزة.

٦ - نافع بن عبدالرحمن الليثي، قارئ المدينة (ت: ١٦٩) وراوياه هما عيسى بن ميناء المعروف بقالون (١٢٠ - ٢٢٠)

وعثمان بن سعيد المعروف بورش (١١٠ - ١٩٧) وورد الطعن في نافع وقالون، بينما مدحهما آخرون.

٧ - علي بن حمزة الكسائي، قارئ الكوفة أيضاً (ت: ١٨٩) وراوياه هما الليث بن خالد البغدادي (ت: ٢٤٠) وحفص بن عمر

الدوري (ت: ٢٤٦).

وهؤلاء هم القراء السبعة المعروفون مع اثنين من رواة كل واحد منهم، على ما ذكره ابن مجاهد الذي جمعهم. وقد زاد المتأخرون أسماء ثلاثة من القراء، وهم:

٨ - خلف بن هشام راوي حمزة، وقارئ بغداد (ت: ٢٢٩) وراويه هما: أبو يعقوب اسحاق بن إبراهيم المروزي (ت: ٢٨٦) وأبو الحسن ادريس بن عبدالكريم (ت: ٢٩٢).

٩ - يعقوب بن اسحاق الحضرمي قارئ البصرة (ت: ٢٠٥).

وراويه هما: محمد بن المتوكل اللؤلؤي المعروف برويس (ت: ٢٣٨) وروح بن عبدالمؤمن الهذلي (ت: ٢٣٥).

١٠ - أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي، قارئ المدينة (ت: ١٣٠).

وراويه هما ابن وردان، عيسى الحذاء (ت: ١٦٠) وابن جمّاز، سليمان بن مسلم الزهري (ت: ١٧٠).

فهؤلاء هم القراء العشرة المعروفون بين أهل التراجم (٤٩).

ويتضح من خلال مراجعة أحوال القراء المذكورين وقراءاتهم أنّ شرط التواتر بالنسبة لكل قراءة منها مفقود، حيث أنّ هذه القراءات نقلت إليهم وعنهم بطريق الأحاد، خاصة أنّ بعض رواياتها مطعون فيهم، ولذلك نجد أنّ عدداً من العلماء طعن في بعض قراءات هؤلاء القراء (٥٠).

ومع ذلك نرى بعض السدّج قد حكم باعتبار القراءات السبع اعتماداً على الروايات الدالة على نزول القرآن على سبعة أحرف، زاعماً - من دون دليل - على أنّ الأحرف السبعة هي القراءات السبع المذكورة.

ولكن من خلال ما بيّنا سابقاً تتضح المناقشة في هذا الادعاء حيث أوضحنا:

أولاً: عدم صحة التمسك بنصوص الأحرف السبعة.

ثانياً: إنّ تمييز هذه القراءات السبع عن غيرها مصدره ابن مجاهد في القرن الرابع الهجري من دون أية ميزة لهم، فكيف تُحمل تلك النصوص - على فرض صحتها - على هذه القراءات؟

وقد انتقد مجموعة من الباحثين ابن مجاهد على اختيار هذا العدد، قال احمد بن عمار المهدي: "لقد فعل مسيِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كلَّ من قلَّ نظره أنّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اذ اقتصر - أي اقتصر على عدد معيّن - نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة..." (٥١).

وقد برّره أبو الحسن علي بن محمد - شيخ أبي شامة - بأنّ ابن مجاهد اختار من القراءات ما وافق خط المصحف... ورأى أن يكونوا سبعة تأسياً بعدة المصاحف التي بعثها عثمان الى الآفاق (٥٢).

الى هنا تنتهي - بعون الله - بحوث "علوم القرآن". آملاً أن يتقبل الله تعالى هذا الجهد اليسير بقبول حسن وأن ينفع به اخواني المؤمنين، خاصة طلبة العلوم الاسلامية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

رياض الحكيم

الحوزة العلمية / ١٤١٥ هـ

الأسئلة

١ - اذكر المعاني الخمسة لجمع القرآن.

٢ - ما هي الشواهد على أن ترتيب الآيات الحالي يمتد إلى عصر الرسول؟

٣ - من الذي ميّز القراء السبعة المعروفين عن غيرهم وفي أي قرن كان ذلك؟

-
- (١) جمع عسيب: وهي الأطراف العريضة من جريد النخل، يُكشط الخوص ويكتب في طرفه العريض.
- (٢) جمع لخفة: وهي الحجارة الرقاق والخزف.
- (٣) الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٨، حديث ٤٩٨٦.
- (٤) تفسير القمي: ٧٤٥.
- (٥) كنز العمال: ١٣ / ١٢٧. وروى نظيره ابن أبي شيبه في المصنّف: ٧ / ١٩٧، وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء، وغيره.
- (٦) الفهرست: ٤٨.
- (٧) المناقب: ٢ / ٤٠.
- (٨) الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٨، حديث ٤٩٨٧.
- (٩) تلخيص التمهيد: ١ / ١٩٥.
- (١٠) الاتقان: ١ / ٢١٢.
- (١١) تفسير العياشي ١ / ١٩، مستدرک الوسائل ٤ / ١٦٥.

(١٢) الاتقان: ١ / ٢١٣.

(١٣) أصول الكافي: ٢ / ٦٣٢.

(١٤) الاتقان: ١ / ٢١١.

(١٥) المصدر.

(١٦) راجع البرهان: ١ / ٣١٨.

(١٧) مناهل العرفان: ١ / ٤٣٩.

(١٨) تلخيص التمهيد: ١ / ٢١٣.

(١٩) المصاحف لابن أبي داوود: ٣٢ - ٣٣.

(٢٠) مسلم: ٢ / ٢٠٣، مسند أحمد: ٥ / ١٢٧.

(٢١) المستدرک: ٢ / ٣٢٣.

(٢٢) الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٩، حديث ٤٩٩٢.

(٢٣) يراجع البيان: ١٧٨.

(٢٤) تلخيص التمهيد: ١ / ١٥٩.

(٢٥) يراجع سورة الحجرات: ٦.

(٢٦) يراجع سورة البقرة: ٢٧١.

(٢٧) يراجع سورة البقرة: ١١٩.

- (٢٨) يراجع سورة البقرة: ٥١.
- (٢٩) كتاب سيبويه: ٢ / ٢٥٧.
- (٣٠) سورة النور: ٢٧.
- (٣١) جامع البيان: ١٨ / ٨٧.
- (٣٢) المستمسك: ٦ / ٢٤٥.
- (٣٣) سير أعلام النبلاء: ٢ / ٤٢٦.
- (٣٤) تدوين القرآن: ٣٤٥.
- (٣٥) الخصال، أبواب السبعة: ٢ / ٣٥٨.
- (٣٦) بصائر الدرجات: ١٩٦.
- (٣٧) بحار الأنوار: ٩٣ / ٤، ٩٧.
- (٣٨) تفسير الطبري: ١ / ٢٣.
- (٣٩) سنن الترمذي: ١ / ١٩٤ حديث ٢٩٤٤.
- (٤٠) يراجع الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٩ حديث ٤٩٩٢.
- (٤١) سنن أبي داود: ٢ / ١٠٢.
- (٤٢) البيان: ١٩٢.

(٤٣) يراجع تلخيص التمهيد: ٢٩٥ / ١.

(٤٤) البيان: ١٩٧ - ١٩٨.

(٤٥) أصول الكافي، كتاب فضل القرآن باب النوادر: ٢ / ٦٣٠.

(٤٦) المصدر.

(٤٧) البرهان: ١ / ٣١٨.

(٤٨) مناهل العرفان: ١ / ٤٣٩.

(٤٩) اعتمدنا في ذكر اسمائهم وخصوصياتهم على كتابي البيان: ١٤٠ - ١٦١، وتلخيص التمهيد: ٣٢٤ - ٣٢٦ فراجع.

(٥٠) يراجع البيان: ١٦٥ - ١٦٦.

(٥١) الاتقان: ١ / ٣٢٣، طبعة ١٣٧٨.

(٥٢) جمال القراء: ١١١.

فهرست المصادر

١ - القرآن الكريم.

٢ - الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي

٣ - الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني

٤ - أصول الكافي محمد بن يعقوب الكليني

- ٥ - الاعتقادات الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه
- ٦ - إعجاز القرآن مصطفى الرفاعي
- ٧ - الأنوار النعمانية السيد نعمة الله الجزائري
- ٨ - أوائل المقالات في المذاهب الشيخ محمد بن محمد النعمان المفيد
- ٩ - بحار الأنوار المجلسي
- ١٠ - بداية المجتهد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي
- ١١ - البرهان بدر الدين الزركشي
- ١٢ - البرهان ميرزا مهدي البروجردي
- ١٣ - بصائر الدرجات محمد بن الحسن الصفار
- ١٤ - تاريخ الطبري ابن جرير الطبري
- ١٥ - تاريخ القرآن أبو عبدالله الزنجاني
- ١٦ - تاريخ وعلوم قرآن علي حجت كرماني
- ١٧ - التبيان في تفسير القرآن الشيخ الطوسي محمد بن الحسن
- ١٨ - تدوين القرآن الشيخ علي الكوراني
- ١٩ - تذكرة الموضوعات أحمد بن طاهر الهندي

- ٢٠ - تصحيح اعتقاد الإمامية
الشيخ محمد بن محمد النعمان المفيد
- ٢١ - تصنيف نهج البلاغة
لبيب بيضون
- ٢٢ - التعريف بالقرآن والحديث
محمد الزفزاف
- ٢٣ - تفسير ابن الأثير
ابن الأثير
- ٢٤ - تفسير الطبري
ابن جرير الطبري
- ٢٥ - تفسير العياشي
محمد بن مسعود بن عيَّاش
- ٢٦ - تفسير القمي
علي بن إبراهيم القمي
- ٢٧ - التفسير الكبير
فخر الدين الرازي
- ٢٨ - تفسير المنار
رشيد رضا
- ٢٩ - التفسير والمفسرون
محمد حسين الذهبي
- ٣٠ - تفصيل آيات القرآن الحكيم
ترتيب جول لابوم
- ٣١ - تلخيص التمهيد
الشيخ محمد هادي معرفة
- ٣٢ - التمهيد في علوم القرآن
الشيخ محمد هادي معرفة
- ٣٣ - تهذيب الأصول
الشيخ جعفر السبحاني
- ٣٤ - تهذيب التهذيب
ابن حجر
- ٣٥ - جامع البيان
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

- ٣٦ - جامع بيان العلم وفضله ابن عبد ربّه
- ٣٧ - الجامع الصحيح محمد بن إسماعيل البخاري
- ٣٨ - جمال القرّاء أبو الحسن علي بن محمد السخاوي
- ٣٩ - حياة محمد محمد حسين هيكل
- ٤٠ - الخصال الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه
- ٤١ - دراسات قرآنية الدكتور محمد حسين علي الصغير
- ٤٢ - الدر المنثور جلال الدين السيوطي
- ٤٣ - الذريعة الى تصانيف الشيعة آغا بزرك الطهراني
- ٤٤ - روضة الكافي محمد بن يعقوب الكليني
- ٤٥ - سنن أبي داوود أبو داوود السجستاني
- ٤٦ - سنن الترمذي أبو عيسى الترمذي
- ٤٧ - سنن الدارمي أبو محمد عبدالله الدارمي
- ٤٨ - سنن النسائي أحمد بن شعيب النسائي
- ٤٩ - سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي
- ٥٠ - السيرة الحلبية علي برهان الدين الحلبي

- ٥١ - شرح الأصول الخمسة السرخسي
- ٥٢ - صحيح مسلم مسلم بن الحجاج القشيري
- ٥٣ - الصواعق المحرقة ابن حجر الهيثمي
- ٥٤ - صيانة القرآن من التحريف الشيخ محمد هادي معرفة
- ٥٥ - ضحى الإسلام أحمد أمين
- ٥٦ - الطبقات الكبرى ابن سعد
- ٥٧ - طبقات مفسرين شيعة عقيقي بخشايشي
- ٥٨ - علوم الحديث ومصطلحه الدكتور صبحي الصالح
- ٥٩ - علوم القرآن محمد باقر الحكيم
- ٦٠ - علوم القرآن عند المفسرين مركز الثقافة والمعارف القرآنية
- ٦١ - عيون أخبار الرضا (عليه السلام) الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه
- ٦٢ - فتح الباري ابن حجر العسقلاني
- ٦٣ - فجر الإسلام أحمد أمين
- ٦٤ - الفصل في الملل والنحل ابن حزم الأندلسي
- ٦٥ - الفقه على المذاهب الأربعة عبدالرحمن الجزيري
- ٦٦ - الفهرست ابن النديم

- ٦٧ - في العقد الاجتماعي جان جاك روسو، ترجمة ذوقان فرقوط
- ٦٨ - القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
- ٦٩ - قرآن در اسلام السيد محمد حسين الطباطبائي
- ٧٠ - الكتاب سيويه
- ٧١ - كتاب العين الخليل بن أحمد الفراهيدي
- ٧٢ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جار الله الزمخشري
- ٧٣ - كليّات في علم الرجال الشيخ جعفر السبحاني
- ٧٤ - لسان العرب ابن منظور
- ٧٥ - مباحث في علوم القرآن مناع القطان
- ٧٦ - متشابهات القرآن ومختلفه محمد بن علي بن شهر آشوب
- ٧٧ - مجمع البيان في تفسير القرآن محمد بن الفضيل الطبرسي
- ٧٨ - المحلى ابن حزم الأندلسي
- ٧٩ - المدرسة القرآنية السيد محمد باقر الصدر
- ٨٠ - مذاهب التفسير الإسلامي اجنتس جولدزيهر
- ٨١ - مستدرک الحاكم الحاكم النيسابوري

- ٨٢ - مستمسك العروة الوثقى السيد محسن الحكيم
- ٨٣ - مسند أحمد أحمد بن حنبل
- ٨٤ - المصاحف ابن أبي داود السجستاني
- ٨٥ - مفردات غريب القرآن الراغب الأصبهاني
- ٨٦ - مقدمة في أصول التفسير ابن تيمية
- ٨٧ - المناقب محمد بن علي بن شهر آشوب
- ٨٨ - مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبدالعظيم الزرقاني
- ٨٩ - منتخب كنز العمال المتقي الهندي
- ٩٠ - الميزان في تفسير القرآن السيد محمد حسين الطباطبائي
- ٩١ - نكت الانتصار أبو بكر الباقلاني
- ٩٢ - النهاية ابن الأثير
- ٩٣ - الوافي ملا محسن الفيض الكاشاني
- ٩٤ - وسائل الشيعة محمد بن الحسن الحر العاملي